أولًا: تعريفات ومصطلحات:

الإيمان

- **معنى الإيمان:**

الإيمان في اللغة: التصديق[1].

قال ابن منظور: اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم، أن الإيمان معناه: التصديق. قال الله تعالى: (وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين)[2]. أي: بِمُصَدِّقٍ.

والإيمان في اصطلاح الشرع: التصديق بما جاء به الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام مِمَّا عُلِمَ مِن الدين بالضرورة أو ما أشبهها من الأدلة اليقينية.

وقد فسَّرَ النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان في الحديث الصحيح عندما سألَ جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم: (قال : أخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره)[3].

- **اشتراط النُّطْق بالشهادتيْن في صِحَّة الإيمان:**

اختلف العلماء في اشتراط النُّطْق بالشهادتيْن لِصِحَّة الإيمان:

فذهب جمهور الأشاعرة[4] والماتريدية[5] إلى أنَّ النُّطْقَ بالشهادتين شرط لإجراء أحكام المؤمنين عليه في الدنيا، من التوارُث، والتناكُح، والصلاة خلفه، والصلاة عليه، والدفن في مقابر المسلمين، ومطالبته بالصلاة والزكاة، وغير ذلك؛ وذلك لأن التصديق القلبي وإن كان إيمانًا إلا أنه باطن خفي فلا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه، لِتُناط به تلك الأحكام، فمن

---

(1) لسان العرب: مادة أمن.

(2) سورة يوسف: الآية 17.

(3) رواه مسلم في صحيحه في الإيمان برقم (1)، عن عمر بن الخطاب.

(4) الأشاعرة: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، واسمه علي بن إسماعيل، وكان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، تلقى مذهب المعتزلة، ثم رجع عنه وجاهر بخلافه. وقد حاول الأشاعرة التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل. توفي سنة (324هـ). انظر: كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري.

(5) الماتريدية: نسبة إلى أبي المنصور محمد السمرقندي الفقيه الحنفي الأصولي، ومن أئمة علم الكلام. توفي سنة (333هـ).

صدَّق بقلبه ولم يُقِر بلسانه من غير عُذْرٍ أو إباء[1]، بل اتفق له ذلك فهو مؤمن عند الله، غير مؤمن في الأحكام الدنيوية، أما المعذور إذا قامت قرينة على إسلامه بغير النُّطْق كالإشارة، فهو مؤمن فيهما[2].

وأما المُمْتنِع الذي يُطلَبُ منه النُّطْق بالشهادتين فيأبى، فهو كافرٌ فيهما، ولو أذعن في قلبه فلا ينفعه ذلك حتى في الآخرة.

و مَنْ أقرَّ بلسانه ولم يُصَدِّق بقلبه كالمنافق، فهو مؤمن في الأحكام الدنيوية، غير مؤمن عند الله تعالى.

المبحث الأول

العقيدة الإسلامية وأدلة إثباتها

تعريف العقيدة الإسلامية:

العقيدة لغةً: مِنْ (عقد)، يدُلُّ على شَدٍّ، وَ شِدَّةِ وُثُوقٍ[3] . ومِنْ ذلك: عَقَدَ الحَبْلَ، والبيعَ والعهدَ، يَعْقِدُ: شَدَّهُ[4].

وعاقَدْتُهُ مثل عاهَدْتُهُ، وهو العَقْد، والجمع: العُقُود، قال الله تعالى:(أوفوا بالعقود)[5].

والعَقْدُ: عَقْدُ اليمين، ومنه قوله تعالى: (ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان)[6].

وعُقْدَة النكاح وكُلِّ شيْءٍ: وجوبه وإبرامه[7].

واعتقدتُ كذا: عَقَدْتُ عليه القلبَ والضميرَ[8].

---

(1) أي: امتناع.

(2) أي: عند الله وفي الأحكام الدنيوية.

(3) معجم مقاييس اللغة مادة (عقد) 86/4.

(4) القاموس المحيط مادة (عقد) ص383.

(5) سورة المائدة: الآية 1.

(6) سورة المائدة: الآية 89 .

(7) معجم مقاييس اللغة السابق. وانظر: أساس البلاغة مادة (عقد)، والمصباح المنير مادة (عقدت) ص421، القاموس المحيط السابق مادة (عقد).

(8) المصباح المنير السابق.

وهذه المعاني كلها تدل على الشَّدِّ وهو نقيض الحَلِّ. قال الزَّبِيْدِيُّ: والذي صرَّح به أئمة الاشتقاق أن أصل العقد نقيض الحل...، ثم استُعْمِل في أنواع العقود من البيوعات وغيرها، ثم استُعْمِل في التصميم والاعتقاد الجازم[1].

والعقيدة اصطلاحًا:

علم العقائد: هو علم يُقتَدَرُ معه إثبات العقائد الدينية بإيراد الحُجَجِ وَدَفْعِ الشُّبَهِ. والمُرادُ بالعقائد ما يُقصَدُ به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[2].

أسماء علم العقائد:

سُمِّيَ هذا العلم بأسماء عديدة، منها:

1- الفقه الأكبر: وهي تسمية الإمام أبي حنيفة، وذكر أن:(الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام، وَلَأَنْ يتفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من أن يجمع العلم الكثير)[3].

2- علم التوحيد: وسُمِّي بهذا الاسم؛ لأن أشهر مباحثه وأهمها هو مبحث التوحيد[4].

3- أصول الدين: وسُمِّي بذلك لأنه يتكفل ببيان الأصول الاعتقادية، وهي ما يتعلق بالإلهيات والنبويات واليوم الآخر.

وهذه التسمية مقابل علم الفقه الذي يتكفّل ببيان الأحكام العملية الفروعية، ومقابل علم الأخلاق والسلوك[5].

4- علم الكلام: وسُمِّي بذلك لأمور منها:

---

(1) تاج العروس مادة (عقد) 426/2.

(2) المواقف للإيجي34/1 و38. وعرَّفه السعد التفتازانيُّ في كتاب (المقاصد 163/1) بقوله :علم الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية.

(3) الفقه الأبسط ص40 . والفقه الأبسط هو رواية أبي مطيع عن أبي حنيفة، وهو الفقه الأكبر رواية أبي مطيع، وعُرِف بالفقه الأبسط تمييزًا له عن الفقه الأكبر رواية حماد بن أبي حنيفة عن أبيه.

(4) شرح الخريدة للدردير والصاوي عليه ص26.

(5) أصول الدين الإسلامي ص15.

أ- لأن مسألة كلام الله وخلق القرآن من أشهر مباحثه وأكثرها جدلًا، حتى كثر فيه الخصام[1].

ب- لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم، مثله كمثل علم المنطق بالنسبة للفلسفة[2].

ج- لأن أصحابه تكلموا في أمور سكت عنها أهل السلف من الصحابة والتابعين، كمسائل الصفات والقدر[3].

علم العقائد أساس العلوم الشرعية:

جميع العلوم الشرعية مبنية على هذا العلم؛ لأنه إذا لم يثبت وجود صانع عالم قادر مرسِل للرسل ومنزل للكتب لم يتصور علم التفسير والحديث ولا علم الفقه وأصوله. فكلها متوقفة على علم الكلام مقتبسة منه، والآخذ فيها بدونه كمن يبني على غير أساس[4].

خصائص العقيدة الإسلامية:

تتميز العقيدة الإسلامية بخصائص أهمها:

1- مصدرها إلهي: وليس للبشر نصيب في وضع أُسُسِها، فالقرآن الكريم كتاب الله وهو مصدر الشريعة الإسلامية الأول أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى:(ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[5].

وتكفل الله بحفظه، فقال:(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[6].

فالعقيدة الإسلامية، وهي ركن الإسلام الأول، وحي أوحى الله تعالى بها إلى رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، فلا مجال للتغيير والتحريف، قال الله عزَّ وجلَّ:(وإذا تتلى عليهم

---

(1) المواقف للإيجي 60/1، وشرح العقائد النسفية للتفتازانيص15، والصاوي على الدردير السابق.

(2) المواقف، وشرح العقائد النسفية، السابقان.

(3) أصول الدين الإسلامي السابق.

(4) المواقف وشرحه للسيد الشريف 51/1.

(5) سورة النحل: الآية 89.

(6) سورة الحجر: الآية 9.

آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحي إلي)[1]، فلها قدسيتها وهيبتها في نفوس المسلمين، فتحترم وتطاع طاعة اختيارية لا إجبار عليها ولا إكراه بخلاف النظريات والأفكار والمبادئ المستوحاة من فكر البشر، التي يعتريها التغيير والنقض المستمر من قبل الحاكم أو رجل الدين أو الآخرين.

2- استقلالها عن غيرها من العقائد، فهي قائمة بذاتها، مصدرها الرئيس كتاب الله العزيز وهو القرآن الكريم، ومصرها الثاني السنة النبوية المشرفة.

فهي لا تقر المادية الملحدة التي تجحد وجود الله تعالى، ولا الوثنية، ولا الاعتقاد بأكثر من إله، لأنها قائمة على توحيد الله المطلق، قال عزَّ وجلَّ:(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون. عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون)[2].

3- ملاءمتها للفطرة الإنسانية، قال تعالى:(فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[3]. فالإسلام دين الفطرة، والفطرة كما قال ابن عطية هي:(الخِلْقة والهيئة في نفس الطفل التي هي معدودة مُهَيَّأَة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه جل وعلا، ويعرفَ شرائعه ويؤمنَ به، وقيل: الفطرة: الملة أو الدين)[4].

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...). فلم يقل: أو يسلِّمانه؛ لأن الإسلام هو دين الفطرة، لذا ورد في رواية أخرى:(

---

(1) سورة يونس : الآية 15.

(2) سورة المؤمنون : الآية 92.

(3) سورة الروم : الآية 30.

(4) تفسير المحرر الوجيز 453/11-454.

يولد على الملة) وفي رواية أخرى:(على هذه الملة)[1].

4- نصوصها النقلية لا يعارضها العقل. مبدأ إثبات العقيدة الإسلامية وبيان قواعدها هو النص من القرآن الكريم والسنة النبوية، لكن لم يكن ذلك من باب الاعتقاد الأعمى، بل أقام عليه الأدلة من العقل، وطلب من البشر أن يفكروا لتملئ نفوسهم إيمانًا، فقال تعالى: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض)[2]. وقال عز وجل:(وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[3]. وأقام القرآن الكريم الأدلة على وجوده تعالى و وحدانيته، والنبوة، واليوم الآخر وبعث الأجساد فيه من القبور، وعلى سائر جزيئات العقيدة.

وقد بيَّن ابن تيمية: أنه لا يوجد نص صحيح يخالف العقل. وإذا وجدت المخالفة فإما أن تكون مخالفة ظاهرية وإمكانية الجمع بينهما حاصلة، وإما أن تكون المخالفة ناشئة عن علة في العقل، كأن يكون صاحبه من أهل البدع والأهواء، فيحاول أن يلوي النص ليوافق عقله، وإما أن تكون المخالفة من جهة أن نسبة النقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم غير صحيحة[4].

أدلة إثبات العقيدة الإسلامية:

أدلة إثبات العقيدة الإسلامية نوعان: نقلية وعقلية.

أما الأدلة النقلية فهي نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما الأدلة العقلية فهي المبنية على البراهين اليقينية التي يقيمها العقل، وهي مبثوثة في ثنايا الكلام على مسائل العقيدة كلها.

---

(1) شرح العقيدة الطحاويةص33-34، والروايتان الأخيرتان لمسلم. وفي الهامش: حديث: كل مولود على الفطرة...إلخ، أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد ومالك وغيرهم.

(2) سورة يونس : الآية 101.

(3) سورة الذاريات : الآية 20-21.

(4) ممن كتب في هذه الخصائص د. عبد الكريم زيدان: المدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية ص35، و د. محمد ملكاوي : عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص28. وكلام ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل و النقل) المشهور باسم(موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول).

الأدِلّة النقلية:

اتفق العُلَمَاء علىٰ أن المصدر الأول الذي تثبت به العَقِيْدَة الإسلامِيَّة هو القُرْآن الكَرِيْم والحَدِيْث المتواتِر[1]، وكلاهما قطعي الثُّبُوْت عن رَسُوْل الله ﷺ، بشرط أن تكون دلالة كل منهما قطعية صريحة لا تحتمل التأويل.

ولٰكِن العُلَمَاء اختلفوا في خبر الآحاد - وهو الذي يرويه راوٍ أو أكثر لم يبلغوا حد التواتر - هل تثبت به العَقِيْدَة أو لا؟ علىٰ أقوال:

القول الأول: أَحَادِيْث الآحاد لا تثبت بها العَقِيْدَة، وهي تفيد العَمَل بها دون العلم، أي: دون القطع. وهو مَذْهَب أكثر أهل العلم وجُمْهُوْر أهل الفِقْه والنَّظَر كما ذكر ابن عبد البَرّ في التَّمْهِيْد، وجماهير المُسْلِمِيْن من الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن فمن بعدهم من المُحَدِّثِيْن والفُقَهَاء وأصحاب الأُصُوْل كما ذكر النَّوَوِيّ في شَرْح صَحِيْح مُسْلِم[2].

---

(١) **الحَدِيْث المتواتر**: هو ما رواه عن رَسُوْل الله ﷺ جمع يمتنع عادة أن يتواطأ أفراده علىٰ الكذب، لكثرتهم وأمانتهم واختلاف وجهاتهم وبيئاتهم، ورواها عن هٰذَا الجمع جمعٌ مثله، حتىٰ وصلت إلينا بسندٍ، كلُّ طبقةٍ من رواته جمعٌ لا يتفقون علىٰ كذب، من مبدأ التَّلَقِّي عن الرَّسُوْل ﷺ إلىٰ نِهَايَة الوُصُوْل إلينا. مثل السُّنَن العَمَلِيَّة في أداء الصلاة والصيام... . / علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٤١.

(٢) وكذا حكاه في الإرْشَاد والتَّقْرِيْب، وبه قال أبو حَنِيْفَة ومَالِك والشَّافِعِيّ والرِّوَايَة المشهورة عن أَحْمَد، وعليه أكثر الحَنَابِلَة، وبه قال ابن تَيْمِيَّة في مِنْهَاج السُّنَّة، والقَرَافِيّ في تَنْقِيْح الفُصُوْل وشرحه، وأبو مَنْصُوْر البَغْدَادِيّ في أُصُوْل الدِّيْن، والأَسْنَوِيّ، والبَاجِيّ في الإشارة وتَحْقِيْق المَذْهَب وإحْكَام الفُصُوْل، وإمَام الحَرَمَيْن في البُرْهَان والورقات، والغَزَالِيّ في المُسْتَصْفَىٰ، وأبي إسْحَاق الشِّيْرَازِيّ في التَّبْصِرَة واللُّمَع، والخَطِيْب البَغْدَادِيّ في الكِفَايَة، والفخر الرَّازِيّ في المَطَالِب العالية والمَعَالِم وأَسَاس التَّقْدِيْس، وابن الأَثِيْر في مُقَدِّمَة جَامِع الأُصُوْل، وابن الحَاجِب في مُنْتَهَىٰ الوُصُوْل، وصَدْر الشَّرِيْعَة في التَّنْقِيْح وشرحه التَّوْضِيْح، والسَّعْد التَّفْتَازَانِيّ

ومن حجج هٰذَا القول:

١- لو أفاد خبر الوَاحِد العلم (القطع) لوجب تصديق كل خبر نسمعه، لٰكِنا لا نصدق كل خبر نسمعه ولو كان ناقله ثِقَة، فهو لا يفيد العلم.

٢- لو أفاد خبر الوَاحِد العلم لجاز نسخ القُرْآن ومتواتر السنة به، لكونه بمنزلتهما في إفادة العلم، لٰكِن نسخ القُرْآن ومتواتر السُّنَّة به لا يجوز لضعفه عنهما، فدل أنه لا يفيد العلم.

٣- لو أفاد خبر الوَاحِد العلم لجاز الحكم بشَاهد وَاحِد، ولم يحتج معه إلىٰ شَاهدٍ ثانٍ، ولا إلىٰ يمين عند عدمه، والحكم بشَاهد وَاحِد بمجرده غير جائز بالاتفاق، وذٰلِكَ دليل علىٰ أنه لا يفيد العلم.

٤- ثبت عن بعض الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم قد ردوا بعض الأَحَادِيْث الآحادية

في التلويح، والسَّمَرْقَنْدِيّ في مِيْزَان الأُصُوْل، والبَزْدَوِيّ وشارحه عبد العَزِيْز البُخَارِيّ، والسَّرَخْسِيّ في أُصُوْله، والجَصَّاص في الفُصُوْل، وابن جُزَيّ في تَقْرِيْب الوُصُوْل إلىٰ علم الأُصُوْل، وابن بَرْهَان في الوُصُوْل إلىٰ الأُصُوْل، وابن السُّبْكِيّ في جَمْع الجَوَامِع والمَحَلِّيّ عليه، وابن عبد الشَّكُوْر في مُسَلَّم الثُّبُوْت، وابن عَاصِم في مرتقىٰ الوُصُوْل وشارحه في نَيْل السُّوْل، وأبو الخطاب الحَنْبَلِيّ في التَّمْهِيْد، وصَفِيّ الدِّيْن البَغْدَادِيّ الحَنْبَلِيّ في قَوَاعِد الأُصُوْل، وابن قُدَامَة في رَوْضَة النَّاظِر وحاشيته لابن بَدْرَان، والطُّوْفِيّ في البلبل في أُصُوْل الفِقْه، والسَّفَّارِيْنِيّ الحَنْبَلِيّ في لوائح الأَنْوَار السَّنِيَّة، ومُحَمَّد عَبْدُه، ومُحَمَّد رَشِيْد رِضَا في المَنَار، والصَّنْعَانِيّ في إجابة السَّائِل، والشَّنْقِيْطِيّ في مراقي الصعود، وغيرهم، وبهٰذَا القول قال الإِبَاضِيَّة قاطبةً، والمُعْتَزِلَة، والزَّيْدِيَّة، وجُمْهُوْر الحَنَفِيَّة والشَّافِعِيَّة، وجَمَاعَة من الظَّاهِرِيَّة.

وردت نصوص هٰـؤُلَاءِ العُلَمَاء وغيرهم في كتاب السَّيْف الحاد في الرد علىٰ من أخذ بحَدِيْث الآحاد في مَسَائِل الاعْتِقَاد لسَعِيْد بن مبروك القنوبي ص٦١-٧٨ و ص٧-٨. وانظر: رَوْضَة النَّاظِر لابن قُدَامَة وشرحها نُزْهَة الخاطر العاطر لابن بَدْرَان ج١ ص٢٦١ ولَوَامِع الأَنْوَار

لمعارضتها ظَاهِر القُرْآن أو بعض الروايات الأُخرىٰ، فلو كانت أخبار الآحاد تفيد القطع لما ردّوها[1].

القول الثاني: أخبار الآحاد يُحتجّ بها في المَسَائِل العَقَدِيَّة، وأنها تفيد القطع. فهي تفيد العلم الظَّاهِر والعَمَل معاً. وهو مَذْهَب كثير من أهل الأثر وبعض أهل النَّظَر كما قال ابن عبد البَرّ في التَّمْهِيْد، وبعض الظَّاهِرِيَّة منهم ابن حَزْم[2]، وذكره ابن تَيْمِيَّة عن القَاضِي عبد الوَهَّاب المَالِكِيّ والإسْفَرَائِيْنِيّ والقَاضِي أبي الطَّيِّب الطَّبَرِيّ وابن فُوْرَك وآخرين[3].

ومن حجج هٰذَا القول:

١- أن النَّبِيّ ﷺ حين كان يَلْتَقِي الناس أفراداً وجماعات في موسم الحج كانوا يرجعون إلىٰ بلدانهم، فيخبرون أقوامهم بما سمعوه منه عليه الصلاة والسَّلَام، فدل علىٰ أن خبر الآحاد تقوم به الحُجَّة في قضايا العَقَائِد كالقضايا الفرعية الفِقْهِيَّة.

٢- أهل قُبَاء أخذوا بخبر الوَاحِد في التحول إلىٰ القِبْلَة، وأقرهم الرَّسُوْل ﷺ علىٰ ذٰلِكَ.

وأُجيبَ علىٰ هٰذِهِ الأَدِلَّة:

بأن الأُصُوْل الاعْتِقَادِيَّة قد انتقلت عن طريق التواتر القطعي، لشيوع أمر الدعوة بحيث لم يَخْفَ علىٰ أحد.

---

(١) السَّيْف الحاد السَّابِق ص١٣-١٨و٧٥.

(٢) السَّيْف الحاد السَّابِق. وفيه أيضاً: وبه قال بعض أهل الحَدِيْث كما ذكر النَّوَوِيّ في شَرْح مُسْلِم، والحُسَيْن بن عَلِيّ الكَرَابِيْسِيّ، وبعض الحَنَابِلَة، وذكر ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من المَالِكِيَّة أن هٰذَا القول يُخَرَّج علىٰ مَذْهَب مَالِك. وهٰذِهِ أسماء وَارِدَة في النصوص التي اقتبسها القنوبي في السَّيْف الحاد من أقوال العُلَمَاء.

أحدهما مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النَّظَرِيّ واقع به، وهو ما اختاره ابن الصَّلَاح، واستثنىٰ أَحَادِيْث قليلة تكلم عليها عُلَمَاء الحَدِيْث[٢].

قال النَّوَوِيّ في التَّقْرِيْب: خالف ابنَ الصَّلَاح المحققون والأكثرون، فقالوا: يفيد الظن ما لم يتواتر[٣].

والذي يظهر: أن كلام جُمْهُوْر العُلَمَاء في أن العَقَائِد لا تثبت بخبر الوَاحِد، يراد به: أن الاعْتِقَاد هو عقد القلب علىٰ الثَّابِت الذي لا يمكن أن يطرأ عليه في وقت من الأوقات خطأ ولا وهم، وذٰلِكَ لا يمكن حصوله إلَّا بنص الكتاب والمتواتر من سنة رَسُوْل الله ﷺ، بشرط أن تكون دلالة كل منهما نصاً صريحاً لا يحتمل التأويل، وما عدا ذٰلِكَ لا يمكن الاعتماد عليه في باب الاعْتِقَاد[٤].

قال الشيخ مَحْمُوْد شلتوت بعد أن نقل نصوصاً عن الغَزَالِيّ والأَسْنَوِيّ والبَزْدَوِيّ في أن رِوَايَة الآحاد تفيد الظن: وهٰكَذَا نجد نصوص العُلَمَاء من متكلمين وأُصُوْلِيِّيْن مجتمعة علىٰ أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العَقِيْدَة...، وليس معنىٰ هٰذَا أنه لا يُحدِث علماً لإنسان ما، فإن من الناس من يَحدث العلمُ في نفسه بما هو أقل من خبر الوَاحِد الذي نتحدث عنه، ولٰكِن لا يكون ذٰلِكَ حُجَّة علىٰ أحد، ولا تثبت به عَقِيْدَة يُكَفَّر جاحدها، فإن الله تعالىٰ لم يكلف عِبَاده عَقِيْدَة من العَقَائِد عن طريق من شأنه أن لا يفيد إلَّا الظن. ومن هنا يتأكد أن ما قررناه من أن أَحَادِيْث الآحاد لا تفيد عَقِيْدَة ولا

---

(١) السَّيْف الحاد السَّابِق ص٥٧.

(٢) البَاعِث الحَثِيْث ص٣٦.

(٣) السَّيْف الحاد السَّابِق ص٨٣ وما بعدها، وأورد نصوصاً في ذٰلِكَ.

يَصِحّ الاعتماد عليها في شأن المغيبات قولٌ مَجْمَع عليه، وثَابِت بحكم الضرورة العقلية التي لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء[1].

فقول العُلَمَاء: إن العَقَائِد لا يقبل فيها إلَّا المتواتر، يريدون به أن العَقَائِد هي ما يكفر جاحده[2].

وعليه: فإن من أنكر عَقِيْدَة ثبتت بدلالة ظنية في نص قطعي الثُّبُوْت، أو ثبتت بدلالة قطعية في نص ظني الثُّبُوْت كالأَحَادِيْث الآحاد، أو بدلالة ظنية في نص ظني الثُّبُوْت فإنه لا يكفر بذَلِكَ[3].

---

(١) الإسلام عَقِيْدَة وشريعة ص٦٠-٦١.

(٢) المُخْتَصَر المُفِيْد في شَرْح جَوْهَرَة التَّوْحِيْد ص١٧.

(٣) العَقِيْدَة الإسلامِيَّة وأُسسها ص٣٨.

(تَنْبِيْه): نصوص القُرْآن الكَرِيْم:

هي من جهة الورود (أي: ثُبُوْتها عن النَّبِيّ ﷺ): قطعية الثُّبُوْت كلها، فنجزم ونقطع بأن كل نص في القُرْآن هو النص الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ رَسُوْله الكَرِيْم، وبَلَّغَهُ الرَّسُوْل ﷺ إلىٰ الأُمَّة.

ومن جهة الدلالة نوعان:

أ- قطعية الدلالة: مثل: قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ - النُّوْر ٢، فالنص قطعي الدلالة علىٰ أن حد الزنا لغير المُحْصَن مئة جلدة، لا أكثر ولا أقل.

ب- ظنية الدلالة: مثل: قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ - البقرة ٢٢٨، فلفظ القُرْء يطلق في اللُّغَة علىٰ الطهر وعلىٰ الحيض، فالنص ليس قطعي الدلالة علىٰ معنىٰ وَاحِد منهما، لذَلِكَ اختلف الفُقَهَاء فيه، ففسره الشَّافِعِيَّة بالطهر، وفسره الحَنَفِيَّة بالحيض.

نصوص السُّنَّة النَّبَوِيَّة:

هي من جهة الورود نوعان:

فالجُمْهُوْر حين قالوا بأن العَقَائِد لا تثبت بخبر الوَاحِد أرادوا عدم تكفير من أنكر عَقِيْدَة ثبتت به.

والجُمْهُوْر حين ذهبوا هٰذَا المَذْهَب رأوا أن أخبار الآحاد متىٰ صح إسنادُها، وكانت متونُها غيرَ مستحيلة في العقل، كانت موجبةً للعَمَل بها دون العلم، وكانت بمنزلة شهادة العُدُول عند الحَاكِم، يلزمه الحكم بها في الظَّاهِر وإن لم يَعلم صدقَهم في الشهادة[1].

أ- قطعية الورود: مثل: الحَدِيْث المتواتر.

ب- ظنية الورود: مثل: أخبار الآحاد.

ومن جهة الدلالة نوعان:

أ- قطعية الدلالة: مثل: قوله ﷺ: (بُنِيَ الإسلام علىٰ خمس...)، فالحَدِيْث نص قاطع الدلالة علىٰ أن أركان الإسلام خمسة، لا أكثر ولا أقل.

ب- ظنية الدلالة: مثل: قوله ﷺ: (لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ منكم العَصْر إلَّا في بني قُرَيْظَة). فاختلف الصَّحَابَة فيه، فمنهم من صلىٰ في الطريق، لأن صلاة العَصْر أدركته، ومنهم من أبىٰ فلم يُصَلِّ إلَّا في بني قُرَيْظَة أخذاً بلفظ الحَدِيْث. / انظر: علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٣٤-٤٢.

(١) أُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٢. وانظر نصوص بعض العُلَمَاء في ذٰلِكَ في كتاب: السَّيْف الحادّ المتقدم.

أُصُوْل الدِّيْن عند المَذَاهِب الإسلامِيَّة

بعد عرض المَذَاهِب الإسلامِيَّة في العَقَائِد تبين أن هناك اختلافات بينها في أُصُوْل الدِّيْن. ويقصد بأُصُوْل الدِّيْن: الأُسس التي يرتكز عليها الإيمان، فإذا فقد أحدها لا يكون إيمان.

وقد اختلفت المَذَاهِب الإسلامِيَّة في تعداد هٰذِهِ الأُصُوْل، مما قد يؤدي إلىٰ الظن بأن هناك اختلافات جوهرية بينها فيها. وسأقتصر علىٰ بَيَان أُصُوْل الدِّيْن عند ثلاثة من تلك المَذَاهِب وهي: **أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة، والشِّيْعَة الإمَامِيَّة، والمُعْتَزِلَة**، والتي ترجع إليها عامة الفِرَق الأُخرىٰ، مبيناً حقيقة ذٰلِكَ الاختلاف بينهم.

١- أُصُوْل الدِّيْن عند أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة

أُصُوْل الدِّيْن عندهم ستة، وهي ما ورد في حَدِيْث جِبْرِيْل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأل النَّبِيَّ ﷺ عن الإيمان، فقال رَسُوْل الله ﷺ: (أن تُؤمنَ بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليَوم الآخِر، وتُؤمنَ بالقَدَر خَيْره وشرِّه)[1].

---

(١) **حَدِيْث جِبْرِيْل** عَلَيْهِ السَّلَامُ في صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٢ كتاب الإيمان، ٣٧ باب سؤال جِبْرِيْل النَّبِيَّ ﷺ عن الإيمان...، رقم ٥٠، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ووَرَدَ عن أبي هُرَيْرَة أَيضاً في رقم ٤٧٧٧.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، أول باب بَيَان الإيمان والإسلام...، رقم ٨ (٢)، عن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. واللفظ لمُسْلِم.

● **الأصل الأول: الإيمان بالله:**

وهو الاعْتِقَاد بأن الله تعالىٰ مُوْجِد المخلوقات، وأنه وَاحِد في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شَرِيْك له ولا شبيه له، ومتصف بصفات الكَمَال والجَلَال من قدرة وعلم وعَدْل...، ومنزه عن كل نقص من ظلم وعَبَث... .

● **الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة:**

الملائكة أجسام نورانية ليست أجساماً مادية، ووجودهم ثَابت بقوله تعالىٰ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ - البقرة ٢٨٥.

وأوجب الله علينا الإيمان بهم، وجعل إنكار وجودهم كفراً، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ - النساء ١٣٦.

أما أوصافهم فلسنا مكلَّفين بتتبعها إلَّا من النص القطعي. ومن تلك الأوصاف:

١- هم معصومون عن الخطأ. قال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ - التحريم ٦.

٢- لهم أجنحة مَثْنَىٰ وثلاث ورباع. قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ - فاطر ١.

٣- قَادِرُوْن علىٰ التمثُّل بصورة البشر. قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ - مريم.

وأَعْمَالهم التي وكّلهم الله تعالىٰ بها كثيرة منها:

١- الاستغفار للمُؤْمنين والدعاء لهم. قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ

أَلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ - غافر.

٢- حمل عرش الرَّحْمٰن. قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾- الحَاقَّة ١٧.

٣- كتابة أَعْمَال البشر. قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ - ق.

٤- رعاية البشر والمحافظة عليهم. قال تعالىٰ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾- الرعد ١١.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ - الانفطار.

٥- إنزال الكتب السماوية. قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ - الشعراء.

٦- قبض الأرواح. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ - السجدة ١١.

٧- حراسة الجنة ورعاية أهلها. قال تعالىٰ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ - الرعد.

٨- حراسة النار وتعذيب أهلها. قال تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ - الزُّمَر ٧١.

وغير ذٰلِكَ من الأوصاف والوظائف الوَارِدَة في القُرْآن الكَرِيْم والأَحَادِيْث الشَّرِيْفَة.

● **الأصل الثالث: الإيمان بالكتب السماوية:**

أمر الله سُبْحَانَهُ أن نصدِّق بالكتب السماوية إجمالاً، ونؤمن بأنها نزلت بالحق. قال سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ - المائدة ٤٤.

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ - المائدة ٤٦.

وخُصَّ القُرْآن الكَرِيْم بمزايا كثيرة منها:

أنه سُبْحَانَهُ تكفل بحفظه، قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ - الحِجْر ٩.

وأنه لا يطرأ عليه من الباطل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ - فُصِّلَت.

لذٰلِكَ لم يرد عليه تحريف كما ورد علىٰ الكتب السماوية السَّابِقَة.

وألزَمَنَا سُبْحَانَهُ العَمَل به، لأنه متضمن جميع التعاليم الإلٰهِيَّة: قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ - المائدة ٤٨.

● **الأصل الرابع: الإيمان بالأنبياء والمُرْسَلين:**

وهٰؤُلَاءِ صَفْوَة الخلق، اختارهم الله تعالىٰ مبشِّرين ومُنْذِرِيْن، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ - فاطر ٢٤.

وجميع الأنبياء والرسل الذين ذكرت أسماؤهم في القُرْآن الكَرِيْم أو لم تذكر يجب أن نؤمن بهم إجمالاً، ونؤمن أن إنكار نُبُوَّة أحد منهم كفر، قال تعالىٰ: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ - البقرة ٢٨٥.

ونؤمن بأنهم يتصفون بأفضل صفات البشر، ويتنزهون عن كل نقيصة، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ - الأنبياء ٧٣.

ونؤمن أن مُحَمَّداً ﷺ خاتم الأنبياء والمُرْسَلين، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ - الأحزاب ٤٠.

- **الأصل الخامس: الإيمان باليوم الآخِر:**

وهو الاعْتِقَاد بوجود حياة أُخرىٰ بعد الموت، يجد الإنسان فيها جزاء عَمَله في الدنيا، فيثاب بنَعِيْم الجنة، أو يعاقب بعذاب النار.

قال تعالىٰ: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ - التغابن ٧.

ومُنْكِرُ هٰذَا اليوم كافر باتفاق المُسْلِمِيْن، قال تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ - التوبة ٢٩.

وبهٰذَا الإيمان يحاسب الإنسان نفسه في الدنيا، لخوفه من حساب اليَوم الآخِر.

- **الأصل السادس: الإيمان بالقَدَر خَيْره وشَرّه:**

ذهب المَاتُرِيْدِيَّة إلىٰ أن القَضَاء هو: إيجاد الله تعالىٰ الأشياء علىٰ وجه الإحْكَام والإتْقَان.

والقَدَر هو: علمه تعالىٰ أزلاً صفاتِ المخلوقات، أي: بما تكون عليه من حُسْن وقُبْح ونفع وضرر.

وعَكَسَ ذٰلِكَ الأَشَاعِرَة، فجعلوا تعريف القَدَر للقَضَاء، والقَضَاء للقَدَر.

ومعنىٰ الإيمان بهما هو: الاعْتِقَاد بأن ما يصيب الإنسان من خَيْر وشر واقعٌ حسب تقدير الله تعالىٰ وعلمه وإرادته.

ولا يعني هٰذَا الإيمان أن الإنسان مُجْبَر علىٰ أفعاله، لأنه إذا كان مُجْبَراً بطل الثواب والعقاب وانتفت بعثة الأنبياء. وسيأتي تفصيل ذٰلِكَ في موضوع القَضَاء والقَدَر.

٢- أُصُوْل الدِّيْن عند الشِّيْعَة الإمَامِيَّة الاثْنَي عَشَرِيَّة

ذهب جُمْهُوْرهم إلىٰ أن أُصُوْل الدِّيْن خمسة وهي:

التَّوْحِيْد، والعَدْل، والنُّبُوَّة، والإمَامَة، والمعاد[1].

- **الأصل الأول: التَّوْحِيْد:**

هو الاعْتِقَاد بأن الله سُبْحَانَهُ وَاحِد في:

أُلوهيته، فلا يعبد سواه.

وربوبيته، فلا شَرِيْك له في الخلق.

وأفعاله، فهو مستقل بالخلق والرزق والموت والحياة... .

ومراتبه: تَوْحِيْد الذات، وتَوْحِيْد الصفات، وتَوْحِيْد الأفعال.

- **الأصل الثاني: العَدْل:**

وهو الاعْتِقَاد أن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ لا يظلم أحداً، ولا يفعل ما يستقبحه العقل السَّلِيْم.

فهم كالمُعْتَزِلَة يقولون بالتَّحْسِيْن والتَّقْبِيْح العقليين.

---

(١) أصل الشِّيْعَة وأُصُوْلها ص١٤١ وما بعدها.

وذكر النَّصِيْر الطُّوْسِيّ في تَجْرِيْد الاعْتِقَاد ص٣٢٧ هٰذِهِ الأُصُوْل إلَّا أصل العَدْل، لٰكِنه أدخله تحت أصل التَّوْحِيْد.

● **الأصل الثالث: النُّبُوَّة:**

جميع الأنبياء والمُرْسَلين الذين نصّ عليهم القُرْآن الكَرِيْم عِبَاد مكرمون، بعثهم اللهُ تعالىٰ لدعوة الخلق إلىٰ الحقّ. وأن مُحَمَّداً ﷺ خاتم الأنبياء وسَيِّد الرسل، وأنه معصوم من الخطأ والخطيئة.

والقُرْآن الكَرِيْم أنزله الله تعالىٰ عليه للإعجاز والتحدي ولتَعْلِيْم الأَحْكَام، وأنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زِيَادَة، والأخبار الوَارِدَة الظَّاهِرَة في نقصه أو تحريفه شَاذَّة ضعيفة، وهي أخبار آحاد لا تفيد علماً ولا عَمَلاً، وهي إما أن تؤول أو يضرب بها الجدار، كما قال الشيخ كاشف الغطاء.

ويعتقد الإمَامِيَّة أن كل من اعتقد أو ادعىٰ نُبُوَّةً بعد مُحَمَّد ﷺ أو نُزُوْلَ وحي أو كتاب فهو كافر يجب قتله.

● **الأصل الرابع: الإمَامَة:**

وهي منصب إلٰهِيّ يختاره الله بسابق علمه بعِبَاده كما يختار النَّبِيَّ، ويأمر النَّبِيَّ بأن يَدُلّ الأُمَّة عليه ويأمرهم باتباعه.

ويعتقدون أن الله سُبْحَانَهُ أمر نبيه أن ينصّ علىٰ عَلِيّ.

ويرون وجوب وجود الإمَام في كل عَصْر، وأن الأرض لا تخلو من حُجَّة.

● **الأصل الخامس: المعاد:**

وهو أن يحيي الله سُبْحَانَهُ الخلائق بعد موتهم يوم القيامة للحساب والجزاء، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ - الزلزلة.

ويعاد الشخص بعينه وبجسده وروحه، بحيث لو رآه الرائي لقال هٰذَا فُلَان[1].

٢- أُصُوْل الدِّيْن عند المُعْتَزِلَة

قدمنا عند الكلام عن المُعْتَزِلَة أن أُصُوْلهم خمسة، وهي: التَّوْحِيْد، والعَدْل، والوعد والوعيد، والمَنْزِلَة بين المَنْزِلَتَيْن، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكَر.

- **الأصل الأول: التَّوْحِيْد:**

وهو العلم بأن الله تعالىٰ وَاحِد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً علىٰ الحد الذي يستحقه، والإقرار به.

وبنوا علىٰ هٰذَا الأصل: قولهم بنفي الصفات الإلٰهِيَّة، ومما يَتَرَتَّب عليه القول بخَلْق القُرْآن، وقولهم باستحالة رؤية الله تعالىٰ من قبل المُؤْمِنين في الآخِرَة.

- **الأصل الثاني: العَدْل:**

وهو الاعْتِقَاد بأن أفعاله تعالىٰ كلها حَسَنَة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يُخِلّ بما هو واجب عليه.

وبنوا عليه: قولهم بوجوب تَعْلِيْل أفعال الله تعالىٰ، وبالتَّحْسِيْن والتَّقْبِيْح العقليين، وبأن العِبَاد يخلقون أفعالهم، وبوجوب اللطف الإلٰهِيّ، ووجوب الصَّلَاح والأصلح، ووجوب بعثة الرسل علىٰ الله تعالىٰ.

- **الأصل الثالث: الوعد والوعيد:**

وهو الاعْتِقَاد بأن الله تعالىٰ وعد المُطِيْعِيْن بالثواب، وتوعَّد العصاة بالعقاب، وأنه يفعل ما وعد به وتوعّد عليه لا محالة، ولا يجوز عليه الخُلْف ولا الكذب.

وبنوا عليه: إنكارهم شفاعة الرَّسُوْل ﷺ لأهل الكبائر من أُمَّته، وقَصَروها علىٰ

---

(١) أصل الشِّيْعَة وأُصُوْلها ص١٤١-١٥٧. وانظر: هٰذِهِ الأُصُوْل أيضاً في: تَجْرِيْد الاعْتِقَاد للطُّوْسِيّ وشرحه كَشْف المُرَاد للحِلِّيّ ص٣٠٥ وما بعدها.

التائبين من المُؤْمنين.

- **الأصل الرابع: المَنْزِلَة بين المَنْزِلَتَيْن:**

وهو أن مرتكب الكَبِيْرَة ليس مُؤْمِناً كما تقوله المُرْجِئَة، وليس كافراً كما تقول الخَوَارِج، وإنما هو في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان.

- **الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكَر:**

ومعنىٰ الأمر بالمعروف إيقاع المعروف، ومعنىٰ النهي عن المُنْكَر زوال المُنْكَر.

وبناءً علىٰ هٰذَا الأصل: تصدَّوا للزنادقة والمبطِلِين، وجاهدوا من خالف حكم الله تعالىٰ[1].

الأصل الدِّيْنِيّ والأصل المَذْهَبِيّ

أُصُوْل الدِّيْن نوعان: ديني، ومَذْهَبِيّ.

أ- الأصل الدِّيْنِيّ: وهو الذي يكون مُنْكِره خارجاً عن دين الإسلام.

ب- الأصل المَذْهَبِيّ: وهو الذي يكون مُنْكِره خارجاً عن دائرة المَذْهَب، ولا يكون خارجاً عن دين الإسلام[2].

بعد بَيَان هٰذَا نورد الأُصُوْل التي أجمعت عليها هٰذِهِ المَذَاهِب، ونورد ما نصت عليه من أُصُوْل يوهم ذِكْرُها الاختلافَ بينهم، لنتبين بعد النَّظَر فيه أن ذٰلِكَ الاختلاف ليس حقيقياً.

وهٰذَا هو هدفنا في كتابنا هٰذَا، **وهو أن نَجْمَعَ ولا نُفَرِّقَ** بين مَذَاهِب الأُمَّة الإسلامِيَّة.

---

(١) تَقَدَّمَ هٰذَا كله مُفَصَّلاً في كلامنا عن فرقة المُعْتَزِلَة.

(٢) كتابنا: أُصُوْل الدِّيْن الإسلامِيّ ص٦١.

أُصُوْل الدِّيْن التي أجمعوا عليها

اتفقت فِرَق أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة، والشِّيْعَة الإِمَامِيَّة، والمُعْتَزِلَة علىٰ الأُصُوْل الآتية:

١- الإيمان إجمالاً بوجود الله تعالىٰ، واتصافه بصفات الكَمَال، وتنزهه عن كل صفة من صفات النقص.

٢- الإيمان إجمالاً بالنُّبُوَّة عامة، ونُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ خاصة، وما بلّغ به من الله تعالىٰ.

وهٰذَا الأصل وإن لم يذكره المُعْتَزِلَة ضمن أُصُوْلهم الخمسة، لٰكِنه مَعْلُوْم مما كتبوه في إثبات نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ وإعجاز القُرْآن، ومن مُنَاظَراتهم، ودفاعهم عن الشَّرِيْعَة الإسلامِيَّة ببراعتهم وحِدَّة عُقُوْلهم.

وتقدم قولهم في موضوع التَّحْسِيْن والتَّقْبِيْح العقليين: (إن من بلغتهم دعوة الرسل وشرائع الله مكلفون من الله بما تقضي به هٰذِهِ الشرائع).

٣- الإيمان إجمالاً باليَوم الآخِر، والناس فيه مجزيون علىٰ أَعْمَالهم.

وهٰذِهِ الأُصُوْل الثلاثة هي أُصُوْل دينية عند هٰذِهِ الفرق جميعها، لأن الذي لا يؤمن بأحدها يكون كافراً يخرج عن دائرة الإسلام بالاتفاق.

أُصُوْل الدِّيْن التي اختلفوا فيها

وردت عند كل فِرْقَة من الفِرَق الثلاث أُصُوْل لم تذكرها الفِرْقَة الأُخرىٰ، مما يوهم أن هناك اختلافاً بينها.

ولٰكِن عند التدقيق نرىٰ أن من تلك الأُصُوْل ما هو راجع الىٰ أحد الأُصُوْل الثلاثة المتقدمة التي أجمعوا عليها، ومنها ما هو منصوص عليه لاعتبار معين، فيكون أَصلاً مَذْهَبِيّاً بمعنىٰ أن الذي لا يؤمن به يخرج من المَذْهَب لا من الدِّيْن.

فأَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة انفردوا بالنص علىٰ أُصُوْل: (الإيمان بالملائكة، وبالكتب السماوية، وبالقَدَر).

والنَّاظِر فيها يجد أن (الإيمان بالملائكة، وبالكتب السماوية) أَصلان يندرجان تحت أصل الإيمان بالنُّبُوَّة، فمن آمن بالنَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ آمن بهما قطعاً.

أما أصل (الإيمان بالقَدَر خَيْره وشره) عندهم، فإن القول به يردّ علىٰ الجَبْرِيَّة القائلين بالجَبْر المطلق، وعلىٰ القَدَرِيَّة والمُعْتَزِلَة القائلين بحُرِّيَّة الإرادة الإنسانية المطلقة... .

لذٰلِكَ يمكن اعتبار أصل الإيمان بالقَدَر أَصلاً مَذْهَبِيّاً وليس أَصلاً دينياً.

والشِّيْعَة الإمَامِيَّة نصوا علىٰ (العَدْل، والإمَامَة).

والنَّاظِر يجد أن أصل العَدْل يندرج تحت أصل الإيمان بالله وتَوْحِيْده[1].

أما أصل (الإمَامَة) فلعُلَمَاء الإمَامِيَّة فيه قولان:

أولهما: إنه رُكْن الدِّيْن وأصله. وعلىٰ هٰذَا القول يعتبر أصل الإمَامَة أَصلاً دينياً، فالذي لا يؤمن به يخرج عن دائرة الإسلام.

القول الثاني: إنه رُكْن المَذْهَب، وهٰذَا القول يعتبر الإمَامَة أَصلاً مَذْهَبِيّاً، فالذي لا يؤمن به لا يخرج عن دائرة الإسلام، لٰكِنه لا يكون شِيْعِيّاً من الإمَامِيَّة الاثْنَي عَشَرِيَّة. وهٰذَا ما ذهب إليه بعض المحققين من علمائهم.

قال الشيخ مُحَمَّد عَلِيّ نَاصِر من عُلَمَاء الإمَامِيَّة: الإمَامَة كما عليه محققو الشِّيْعَة الإمَامِيَّة ليست من أُصُوْل الدِّيْن، أي: أركان الإيمان، ولا من أُصُوْل الإسلام، وإنما هي

---

(١) تقدم عند ذكر أُصُوْل الإمَامِيَّة أن النَّصِيْر الطُّوْسِيّ جعل أصل العَدْل تحت أصل التَّوْحِيْد. وقال الشيخ كاشف الغطاء في أصل الشِّيْعَة وأُصُوْلها ص١٥٣ عند شرحه أصل العَدْل من أُصُوْلهم الخمسة: (وليس - العَدْل - في الحقيقة أَصلاً مستقلاً بل هو مندرج في نعوت الحق...فهو شأن من شؤون التَّوْحِيْد).

أصل مَذْهَبِيّ من أُصُوْل مَذْهَب التشيع. بمعنىٰ أن من أنكرها لا يكون شِيْعِيّاً، لا أنه لا يكون مُؤْمِناً ولا مسلماً[1].

والمُعْتَزِلَة نصوا علىٰ: (العَدْل، والوعد والوعيد، والمَنْزِلَة بين المَنْزِلَتَيْن، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكَر).

والنَّاظِر يجد أن أصل (العَدْل) يندرج تحت أصل الإيمان بالله وتَوْحِيْده.

وكذٰلِكَ (أصل الوعد والوعيد)، فإنه مندرج أَيضاً تحت أصل التَّوْحِيْد وأصل الإيمان باليَوم الآخِر.

أما أصل (الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكَر) فهو ثَابِت عند جميع المَذَاهِب، لأنه منصوص عليه في القُرْآن الكَرِيْم، قال تعالىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ - آل عِمْرَان ١١٠.

وفي السُّنَّة النَّبَوِيَّة، قال رَسُوْل الله ﷺ: (من رأىٰ منكم مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فإن لم يستطع فبلِسَانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذٰلِكَ أضعف الإيمان)[2].

وأجمع عليه المُسْلِمُوْن. فهو مما علم من الدِّيْن بالضرورة.

فهٰذِهِ الأُصُوْل في حقيقتها ترجع إلىٰ الأُصُوْل الدِّيْنِيَّة المتقدمة المُتَّفَق عليها بين المُسْلِمِيْن.

أما أصل (المَنْزِلَة بين المَنْزِلَتَيْن) فإنه أصل مَذْهَبِيّ، أرادوا به الردّ علىٰ الخَوَارِج

---

(١) أُصُوْل الدِّيْن الإسلامِيّ للشيخ مُحَمَّد عَلِيّ نَاصِر ص٢٥.

(٢) **وحَدِيْث: من رأىٰ منكم مُنْكَراً...** إلخ: أَخْرَجَهُ أَحْمَد في مُسْنَده ومُسْلِم وأبو دَاوُد والتِّرْمِذِيّ والنَّسَائِيّ وابن مَاجَة، عن أبي سَعِيْد. وهو صَحِيْح. / الجَامِع الصَّغِيْر ص٥٢٦. وأَخْرَجَهُ البَيْهَقِيّ بسَنَده في شُعَب الإيمان السَّابِق. والحَدِيْث في صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٢٠ باب كون النهي عن المُنْكَر من الإيمان...، رقم ٤٩، عن أبي سَعِيْد الخُدْرِيّ.

القائلين بكفر مرتكب الكَبِيرَة، وعلىٰ المُرْجِئَة القائلين بإيمانه... إلخ[1].

بعد هٰذَا:

يتضح أن المَذَاهِب المتقدمة تتفق علىٰ أن أُصُوْل الدِّيْن ثلاثة هي: الإيمان بالله تعالىٰ وتَوْحِيْده، والإيمان بالنُّبُوَّة ونُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ، والإيمان باليَوم الآخِر.

وهي أُصُوْل دينية يخرج جاحد أحدها عن دائرة الإسلام باتفاق المُسْلِمِيْن.

أما الأُصُوْل الأُخرىٰ التي ذكرتها تلك المَذَاهِب، فمنها ما هو مندرج في الأُصُوْل الثلاثة المذكورة، فتعد أُصُوْلاً دينية.

ومنها ما هو أُصُوْل مَذْهَبِيَّة تُخْرِجُ مُنْكِرَهَا عن دائرة المَذْهَب، ولا تُخرجه عن دائرة الإسلام، وهي: أصل (الإيمان بالقَدَر) عند أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة، وأصل (الإمَامَة) عند محققي الإمَامِيَّة الاثْنَي عَشَرِيَّة، وأصل (المَنْزِلَة بين المَنْزِلَتَيْن) عند المُعْتَزِلَة.

وبذٰلِكَ يتبين أن الاختلاف المتقدم في تعداد أُصُوْل الدِّيْن عند تلك المَذَاهِب هو اختلاف صوري، وليس اختلافاً حقيقياً.

وبناءً علىٰ الأُصُوْل الدِّيْنِيَّة الثلاثة المُجْمَع عليها قالوا:

انقسمت مباحث علم الكلام الىٰ ثلاثة أقسام:

الإلٰهِيَّات: وهي المَسَائِل التي يبحث فيها عما يتعلق بالإلٰه.

والنَّبَوِيَّات: وهي المَسَائِل التي يبحث فيها عما يتعلق بالأنبياء.

والسَّمْعِيَّات: وهي المَسَائِل التي لا تُتَلَقَّىٰ أَحْكَامُهَا إلَّا من السمع[2].

وهٰذَا التقسيم هو الذي سنعتمده في كتابنا هٰذَا.

---

(١) انظر كتابنا: أُصُوْل الدِّيْن الإسلامِيّ ص٥٨-٦٠.

(٢) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٤.

المَبْحَث الثاني

أهمية الإيمان في الحياة

للإيمان بالله تعالىٰ ورَسُوْله ﷺ آثار عَظِيْمَة علىٰ حياة المُسْلِم. تنقله من الظلمات إلىٰ النُّوْر، وتميز حياته عن حياة الملحد والمُشْرِك. تتجلَّىٰ في ما يأتي:

١- الإيمان بالله تعالىٰ، وبأنه وَاحِد يمكِّن المرء من العلم بأن السماوات والأرض لها رب يَكلؤها برعايته، ويرعىٰ من فيها بعنايته، فيرزقهم ويربيهم، ويعلِّمه بأن ليس في هٰذَا الكون شيء يقوم بنفسه.

أما المُشْرِك والملحد فلا يقول بمثل هٰذَا.

٢- الإيمان بالله ووحدانيته ينشئ في الإنسان العزة والأنفة. فالله هو القَوِيّ، ولا ضَارّ ولا نَافِع ولا مُحْيِي ولا مُمِيْت إلَّا هو، فلا يطأطِئ رأسه لأحد، ولا يتضرع إليه، ولا يرتعب من كبريائه.

أما المُشْرِك والملحد فيرىٰ غيره قَادِراً علىٰ نفعه وضره، فيتضرع إليه، ويرتعب منه.

٣- الإيمان ينشئ في المرء التواضع. فلا تراه يفخر بماله وعزته وكفاءته، وإنما يقول: هي هِبَة من الله تعالىٰ.

بخلاف الملحد الذي يبطر إذا حدثت له نعمة عاجلة، ويشمخ بأنفه علىٰ غيره.

٤- المُؤْمِن بالله ووحدانيته يرىٰ أن النجاة والفلاح لا تكون إلَّا بتَزْكِيَة النفس، والعَمَل الصالح، والبِر، والتُّقىٰ.

أما المُشْرِك فيقول: إنَّ ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، أو نحن أبناء الله وأحباؤه، فلن يعذبنا بذنوبنا، أو نستشفع بكبرائنا وأتقيائنا، أو بتقديم النذور والقرابين إلىٰ الآلهة.

والملحد يقول: لا نُسأل عن أَعْمَالنا، فالشهوات النفسية هي آلهتهم.

٥- المُؤْمِن لا يتسرب إليه اليأس، بل هو مطمئن مملوء سكينةً وأملاً. ولو أُهين، ولو أُوذي.

أما المُشْرِك والملحد فلا يقوىٰ قلبه علىٰ الوقوف بالمحن، وقد يفضي اليأس بهم إلىٰ الانتحار.

٦- المُؤْمِن علىٰ قوة عَظِيْمَة من العزم والإقدام، والصبر والثبات، والتوكل، فإذا كان حَاكِماً لا يبتغي إلَّا مرضاة الله عَزَّ وجَلَّ، ولا يهمه إلَّا إقامة العَدْل، لأن وراءه قوة علوية، تكلؤه، وترعاه، وتأخذ بيده.

أما المُشْرِك والملحد فلا ينتظر مثل هٰذِهِ القوة، فلا يملك عندئذٍ من العزم والتوكل ما يملكه المُؤْمِن.

٧- المُؤْمِن علىٰ قدر كَبِيْر من الشَّجَاعَة والجرأة. لأن الذي يوهن عزم الإنسان، أمران، هما:

أ- حبه للنفس والمال والأهل.

ب- اعْتِقَاده بأن هناك أحداً يميت غير الله، وأنه قَادِر علىٰ أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة من الحيل.

فالمُؤْمِن يؤمن بأن مَالِك النفس والمال والأهل هو الله تعالىٰ، وأن المُمِيْت هو الله وحده بالأجل المحتوم المخصص، فلا يخشىٰ عندئذٍ رجلاً أو حَرْباً، فلا يكون أجرأ ولا أشجع من المُؤْمِن الحق.

بخلاف الملحد والمُشْرِك الجبان، الذي يخشىٰ زحف الجيوش وقوة العدو.

٨- الإيمان يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه: الترفع والقَنَاعَة والاستغناء، ويطهر قلبه من الطمع واللؤم، والعواطف السافلة، والصفات القبيحة الأُخرىٰ، فالرزق لا يكون إلَّا بيد الله وحده، فلا نجاح ولا خسران إلَّا بيده تعالىٰ.

أما الملحد والمُشْرِك فهو عبد الطمع والشَّرَه، وهمُّه الكسب بالسُّبُل المشروعة وغير المشروعة.

٩- الإيمان يجعل الإنسان مُتَقَيِّداً بقَانُوْن الله، ومحافظاً عليه. فهو إن خلا بنفسه ليلاً ونهاراً، يعلم أن عليه رَقِيْباً، يحاسبه علىٰ كل صَغِيْرَة وكَبِيْرَة، فتراه يُسَارع إلىٰ الخَيْرَات، ويأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المُنْكَر. فوازعه النفسي يحضه علىٰ الخَيْر، وينهاه عن كل رذيلة.

أما الملحد والمُشْرِك فلا يرىٰ شَيئاً من هٰذَا[1].

(١) مبادئ الإسلام ص٧١-٧٧.

الفَصْل الرَّابع
الإلٰهِيَّات

وفيه ثلاثة مباحث:

المَبْحَث الأول: وجود الله تعالىٰ وأدلته.

المصادَفَة، سبب الإلحاد.

المَبْحَث الثاني: الأسماء الحُسْنَىٰ.

المَبْحَث الثالث: الصفات الإلٰهِيَّة، وما يترتب عليها.

أولاً: ما يجب في حقه تعالىٰ من الصفات:

الصفة النَّفْسِيَّة: وهي الوجود.

الصفات السَّلبية: القِدَم، البَقَاء، مخالفة الحوادث، القيام بالنفْس، الوحدانية.

صفات المعاني: القدرة، الإرادة، السمع، البصر، العِلْم، الكلام، الحياة.

ثانياً: ما يستحيل في حقه تعالىٰ.

ثالثاً: ما يجوز في حقه تعالىٰ: رؤية الله تعالىٰ.

القَضَاء والقَدَر.

المَبْحَث الأول

وجود الله تعالى وأدلته

الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ هو الرُّكْن الأول من أركان الإيمان الوارد في حَدِيْث جِبْرِيْل: (أن تؤمن بالله...)، وهو الرُّكْن الأول من أركان الإسلام الوارد في الحَدِيْث المذكور: (أن تشهد أن لا إلٰه إلَّا الله...)، فهو أَسَاس مَسَائِل العَقِيْدَة جَميعاً.

وهنا نبحث مَسْأَلَة وجود الله تعالىٰ وصفاته، متخذين طريقين ينتهيان إلىٰ اليقين الذي لا شك فيه:

الطريق الأول: اعتماد الدليل النقلي من القُرْآن الكَرِيْم والسُّنَّة النَّبَوِيَّة الصَّحِيْحة الثَّابِتَة عن الرَّسُوْل ﷺ، مُعْرِضين عن الأَحَادِيْث الضعيفة.

والطريق الثاني: النَّظَر العقلي السَّلِيْم، إذ هو عُمْدَة دراستنا في العَقَائِد.

وبذٰلِكَ تبنىٰ العَقِيْدَة الإسلامِيَّة في النفوس علىٰ أَسَاس مَتِيْن، يعتمد البَرَاهِيْن اليقينية التي لا تقبل الجدل.

وُجود الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى

آمن جُمْهُوْر الناس بوجود الله عَزَّ وجَلَّ، بعد أن تَفَكَّروا في الكون ودَقَائِقه، وحَكَّموا عُقُوْلهم، وجَنَّبوها الهوىٰ.

وأنكره الضالّون، مدّعين حرية العقل، بحُجَّة أن الحواس لم تدركه، والغيب لا يُعَوَّل عليه في إثبات وجوده.

لذٰلِكَ رد العُلَمَاء علىٰ المنكِرين بأَدِلَّة نقلية وعقلية صريحة كثيرة، تثبت للعاقل

المتمحّص وجودَ الله تعالىٰ، وأنه مُوْجِد الكون.

وفيما يأتي أهم تلك الأَدِلَّة.

أَدِلَّة وجود الله تعالى

استدل العُلَمَاء علىٰ وجود الله تعالىٰ بأَدِلَّة كثيرة منها: دليل الحدوث، ودليل الوجوب، ودليل العِنَايَة والاختراع، والدليل الوجودي، والدليل الأخلاقي.

الدليل الأول: دليل الحدوث

بنىٰ المتكلمون هٰذَا الدليل علىٰ المُقَدِّمَتَيْن الآتيتين:

المُقَدِّمَة الأُوْلَىٰ: العالَم حادِث.

المُقَدِّمَة الثانية: كل حادِث لا بد له من مُحْدِث.

النتيجة: العالَم لا بد له من مُحْدِث[1] يُحْدِثه، أي: يرجِّح وجوده علىٰ عدمه[2]،

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٤٤.

وهاتان المُقَدِّمتان في: إحياء عُلُوْم الدِّيْن للغَزَالِيّ، انظره بشرحه إتْحَاف السَّادَة للزَّبِيْدِيّ ج٢ ص٩٠ والمَوَاقِف ج٨ ص٢ والمُسَايَرَة لابن الهُمَام، وشرحه المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف ص١٧ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٤. وانظر: المَطَالِب العالية للرَّازِيّ ج١ ص٢٠٠.

(٢) المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف السَّابِق.

العالَم: هو كل ما عدا الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ من الموجودات.

والحادِث: هو ما كان مَعْدُوْماً ثم وجد. وسمي حادثاً لأنه حدث وظهر لعِلَّة أوجدته بعد أن لم يكن. / المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف، وإتْحَاف السَّادَة، السَّابِقَان.

وتعريف العالَم هٰذَا في: العَقِيْدَة النِّظَامِيَّة للجُوَيْنِيّ ص١٢٩ والإنْصَاف للبَاقِلَّانِيّ ص٣٠ والتَّمْهِيْد للَّامِشِيّ ص٤٥ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٤.

وهو الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ.

ولكي تظهر لنا صحة هٰـذِهِ النتيجة يجب أن نقيم الدليل علىٰ صحة كلٍّ من المُقَدِّمَتَيْن السَّابِقتين.

الدليل علىٰ أن العالَم حادِث:

هو تَغيّره من حال إلىٰ حال، ويمكن صياغته علىٰ النَّحْو الآتي:

العالَم متركب من جَوَاهِر وأعراض.

وكلٌّ من الجَوَاهِر والأعراض متغير.

فالعالَم متغير[1]. والتغير دليل الحدوث.

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٤٤-٤٥. وانظر: المُسَايَرَة لابن الهُمَام، وشرحه المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف ص١٨. وذكر أبو المُعِيْن النَّسَفِيّ: (إن العالَم عند عامة المتكلمين أقسام ثلاثة: جَوَاهِر وأجسام وأعراض. ولم يرضَ الإمَام أبو مَنْصُوْر المَاتُرِيْدِيّ هٰذِهِ القسمة لأن فيها تداخلاً، فقال: العالَم قسمان: أَعْيَان وأعراض. والأَعْيَان قسمان: غير متركبة وهي في عرف المتكلمين الجَوَاهِر، ومتركبة وهي في عرفهم الأجسام، قال: وبهٰذَا يعرف أن كل جسم جوهر). / تَبْصِرَة الأدِلَّة ج١ ص٤٤-٤٥.

الجوهر: ما قام بنفسه.

والعَرَض: ما قام بغيره. وبعض الأعراض تدرك بالحواس الظَّاهِرَة: كالحلاوة، والصوت، والألوان، والروائح، والبرودة، والخشونة. وبعضها يدرك بالعقل: كالقدرة، والإرادة، والعلم. / شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٤٣ وشَرْح الصَّاوِيّ عليه.

وذكر الجُوَيْنِيّ في الإرْشَاد ص١٧: (الجوهر هو المتحيِّز، وكل ذي حجم متحيِّز، والعَرَض هو المعنىٰ القائم بالجوهر كالألوان والطعوم والروائح والحياة والموت والعُلُوْم والإرادات والقُدَر القائمة بالجَوَاهِر). وقال أيضاً في الإرْشَاد ص٢٣: (الجَوَاهِر في اصْطِلَاح الملحِدة - الفَلَاسِفَة - تسمىٰ الهيولىٰ، والأعراض تسمىٰ الصورة).

والأعراض حادثة، بدليل:

أ- تغيرها من عدم إلىٰ وجود، ومن وجود إلىٰ عدم، وذٰلِكَ:

إما بالمشَاهدة كالحركة بعد السكون، والضَّوْء بعد الظلمة، والسواد بعد البياض، والحرارة بعد البرودة، إلىٰ غير ذٰلِكَ، وبالعكس.

وإما بالدليل، وذٰلِكَ لأن ما شوهد سكونه مثلاً علىٰ الدوام كالجبال، جازت عليه الحركة بزلزال[1].

ب- احتياجها إلىٰ مُخَصِّص يُخَصِّصُها بوقت حدوثها دون ما قبله وما بعده، فلا بد من مرجِّح لوقوعه في ذٰلِكَ الوقت، لأن الترجيح من غير مرجِّح محال.

ج- افتقارها إلىٰ جسم تقوم به[2].

والجَوَاهِر حادثة أَيضاً، وذٰلِكَ:

لأنها ملازمة للأعراض لا تنفصل عنها، فهي لا تخلو عن الحركة والسكون والألوان...، والأعراض حادثة كما تقدم، وكل ما لا ينفكّ عن الحادث فهو حادث.

فإذا ثبت أن الجَوَاهِر والأعراض حادثة لزم أن يكون العالَم المكوَّن منهما

والجسم: هو المؤلف المركب من جوهرين فأكثر. / المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف السَّابِق. وانظر: تَمْهِيْد الأوائل ص٣٧ والإنْصَاف للبَاقِلَّانِيّ ص١٦ والإرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص١٧ والتَّمْهِيْد للآمِدِيّ ص٤٦.

وقد يعبر بعضُهم مثل ابن الهُمَام عن الجَوَاهِر بالأجسام، وهما في اللُّغَة بمعنىٰ وَاحِد. / المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف ص١٨.

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر، والمُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف، السَّابِقَان. وانظر: تَمْهِيْد الأوائل والإنْصَاف السَّابِقين، وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٨٨ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ والدُّسُوْقِيّ عليه ص١٥١.

(٢) المُسَايَرَة لابن الهُمَام، وشرحه المُسَامَرَة لابن أبي شَرِيْف، السَّابِقَان.

حادثاً[1].

وبذٰلِكَ تَسْلم المُقَدِّمَة الأُوْلَىٰ (العالَم حادِث).

الدليل علىٰ أن كل حادِث لا بد له من مُحْدِث يُحْدِثه:

هو أن المصنوع لو حدث بلا صانع، للزم أن يكون المصنوع قد حدث بنفسه، فيلزم ترجيح أحد الأمرين المتساويين - أي: الوجود والعدم - علىٰ مساويه بلا سبب، وهو محال[2].

فلو حدث حادث بلا مُحْدِث، للزم أن يترجح وجوده علىٰ عدمه بلا مرجِّح، وهو مستحيل بالبداهة.

ومعنىٰ الرجحان بدون مرجِّح هو: أن يكون الشيء جارياً علىٰ نَسَق معين، ثم يتحول عن نَسَقه بدون وجود أي مغيِّر.

وهٰذَا واضح البطلان لأن جميع العقلاء يعلمون أن لا بد لتحويل الشيء عن حاله السَّابِقَة من محَوِّل، يفرض عليه هٰذَا الوضع الجديد، وينسخ حاله القديمة. فإنك لو تَركتَ كفَّتَي مِيْزَان متساويتين، لا ثقل في أحداهما، وزعمت أن إحداهما قد ترجحت، دون أي مؤثر خارجي، كنفخة هواء أو سقوط حَجَر... ولو زعمت للناس أن جهاز المذياع أوصل إليك أخبار العالم دون أن تدير صمامه لضحكوا منك وأشفقوا عليك.

وعلىٰ ذٰلِكَ نَقُوْل: كان العدم هو المنبسط محل العالَم قبل وجوده، فالعدم أرجح من الوجود لسبقه، ولٰكِن حين خُلق هٰذَا العالَم ترجح وجودُه علىٰ العدم، والوجود والعدم أمران متساويان في الأصل، وترجيح أحد هٰذَيْنِ الأمرين المتساويين علىٰ الآخر

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٤٥.

(٢) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٤٥ وقال: (هٰذَا هو البُرْهَان المشهور بينهم في بَيَان حدوث العالَم وافتقاره إلىٰ صانع)، وانظر: ص٥١ وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه.

بلا مرجِّح مستحيلٌ وباطل بالبداهة.

فالقول بأن العدم قد تحوَّل إلىٰ وجود العالَم دون مسبب لهٰذَا الوجود، باطل ومستحيل استحالة دعوىٰ صاحب المِيْزَان والمذياع[1].

وبذٰلِكَ تسلم لنا المُقَدِّمَة الثانية، وهي: (كل حادِث لا بد له من مُحْدِث).

فإذا سلمت المُقَدِّمتان سلمت النتيجة، وهي: العالَم لا بد له من مُحْدِث يُحْدِثه.

الدليل الثاني: دليل الوجوب

موجِد هٰذَا الكون إما أن يكون: مستحيلاً، أو ممكناً، أو واجباً، لأن كل أمر لا بد أن يتصف بوَاحِد من الأُمور الثلاثة السَّابِقَة ولا رابع لها، لأنها أقسام الحكم العقلي[2].

---

(١) انظر: كبرىٰ اليقينيات الكونية ص٨١و٨٣ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٤٥. وانظر الرجحان بلا مرجِّح في: المَطَالِب العالية للرَّازِيّ ج١ ص٧٥ وما بعدها.

(٢) الحكم: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، بواسطة: الشَّرْع، أو العادة، أو العقل. فهو ثلاثة أقسام:

١- الحكم الشَّرْعِيّ: وهو الذي تكون وسيلة إثباته الشَّرْع، كإثبات الوجوب للصلاة.

٢- الحكم العادي: وهو الذي تكون وسيلة إثباته العادة والتَّجْرِبَة، كإثبات الإحراق للنار.

٣- الحكم العقلي: وهو الذي تكون وسيلة إثباته العقل، كإثبات الزوجية للعدد (٢) و(٤)...، والحكم العقلي هو عُمْدَة دراستنا في العَقَائِد.

الحكم العقلي: ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: واجب، ومستحيل، وممكن (جائز).

١- الواجب: وهو الثَّابِت الذي لا يقبل الانتفاء، أو هو ما لا يُتَصور في العقل عدمُه. كوجوب القدرة لله تعالىٰ، وكوجوب الزوجية للعدد (٤).

٢- المستحيل: هو المنفي الذي لا يقبل الثُّبُوْت فلا يمكن وجوده، ولا يُتَصور حدوثه مطلقاً،

١- فلا يجوز أن يكون مُوجِد العالَم مستحيلاً، لأن المستحيل لا يُتَصور وجوده مطلقاً، فهو عدم مَحْض، فلا يمكن أن يوجِد غيرَه، إذ إن (فاقد الشيء لا يعطيه)، فكيف يكون المستحيل مصدراً للوجود؟

٢- كما لا يجوز أن يكون مُوجِدُ العالَم ممكناً، لأن الممكن لا يوجد إلَّا إذا وجد سبب وجوده، وهٰذَا السبب إن كان ممكناً فعندئذٍ يحتاج إلىٰ سبب آخر... إلخ وهٰكَذَا. وهٰذَا يلزم منه الدَّوْر أو التسلسل، وكلاهما باطل، كما سيأتي بَيَانه بعد قليل، فما أدىٰ إليهما فهو باطل. فلزم أنْ لا يكون موجِد الكون ممكناً.

٣- ولما ثبت أن مُوجِد العالَم ليس بمستحيل ولا بممكن، وجب أن يكون مُوجِد العالَم واجب الوجود. فلا يحتاج وجوده إلىٰ سبب، بل هو سبب وجود العالَم[1].

أو هو ما لا يُتَصور في العقل وجوده. كإثبات شَرِيْك لله، وكتقدم الابن علىٰ أبيه في الوجود.

٣- الممكن (الجائز): هو الذي يقبل الثُّبُوْت تارة والنفي تارة أُخرىٰ علىٰ التعاقب. أي: يمكن وجوده إذا وجد السبب الذي يرجح وجوده. أو هو ما يَصِحّ في العقل وجوده وعدمه علىٰ السواء، ولا يوجد إلَّا بمرجح، كوجود الجنة الآن، وكوجودك الآن في هٰذِهِ الغرفة.

السُّنُوْسِيَّة وشرحها للبَاجُوْرِيّ ص٣٤ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسُّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه ص٣٠ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه ص٢٩-٣٣و٣٨-٤١ والمُعْتَقَد المُنْتَقَد ص١٣-١٥ والكُلِّيَّات للكَفَوِيّ ص٣٨٠.

(١) انظر: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٤ وحَاشِيَة الدَّوَّانِيّ والكَلَنْبَوِيّ عليه ج١ ص٢٢٧ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٤ ونِهَايَة الإقدام ص١٥ والرَّازِيّ مفسراً ص٢٨٢.

معنىٰ واجب الوجود: هو أنه لا يجوز عليه العَدَم، فلا يقبل العَدَم لا أزلاً ولا أبداً. / شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٤ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٥٠.

وذكر الرَّازِيّ أن المتكلمين فسروا واجب الوجود لذاته بأُمور ثلاثة:

معنىٰ الدَّوْر ودليل بطلانه:

الدَّوْر: هو أن يكون شَيئان، كلٌّ منهما عِلَّة للآخر[1]. كقولك: زَيْد أوجد عَمْراً، وعَمْرو أوجد زيداً.

فكلٌّ من زَيْد وعَمْرو، يتوقف وجود أحدهما علىٰ الآخر. وهو الدَّوْر الباطل[2]، وكلٌّ منهما يظل مَعْدُوْماً حتىٰ يأتي مؤثر خارجي.

دليل بطلان الدَّوْر:

هو أن يستلزم أن يكونَ كلُّ وَاحِد منهما سَابِقاً صاحبَه، ومتأخراً عنه، في وقت وَاحِد. وهٰذَا يعني استلزام تقدم الشيء علىٰ نفسه وهو تناقض[3].

(أ- إنه هو الذي يستحق الوجود من ذاته. وهٰذَا يفيد أن ذاته عِلَّة لوجود نفسه.

ب- إنه هو الذي لا يقبل العَدَم، أو إنه الذي لا يَصِحّ عليه العَدَم.

ج- إنه هو الذي لا يتوقف وجوده علىٰ سببٍ منفصل، أو الذي لا يكون وجوده مُعَلَّلاً بسببٍ منفصل). / المَطَالِب العالية للرَّازِيّ ج١ ص٢٨١.

(١) المَوَاقِف ج٤ ص١٥٠.

(٢) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٥.

الدَّوْر باطل سواء كان:

من مرتبة وَاحِدَة: (ويسمىٰ الدَّوْر المُصَرّح)، كما يتوقف أ علىٰ ب، وبالعكس.

أو من مراتب متعددة: (ويسمىٰ الدَّوْر المضمَر)، كما يتوقف أ علىٰ ب، و ب علىٰ ج، و ج علىٰ أ.

انظر: التَّعْرِيْفَات ص٩٤ كلمة (الدَّوْر). وبِهٰذَا المعنىٰ: مَقَاصِد الطَّالِبِيْن وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٢ ص١١٢ ومِفْتَاح الباب ص٨٦.

(٣) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٤ ص١٥١ والمَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٢ ص١١٢ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٥٦ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٥ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن

فعَمْرو يتوقف وجوده علىٰ زَيْد، وزَيْد يتوقف وجوده علىٰ عَمْرو. وهٰذا يعني أن عَمْراً يتوقف وجوده علىٰ عَمْرو، بعد حذف الحد الأَوْسط (زَيْد).

وهٰذَا يستلزم تقدم الشيء علىٰ نفسه، أي: يلزم أن يتقدم عَمْرو علىٰ عَمْرو، لأنه سابق ومسبوق، فيلزم أن يكون عَمْرو موجوداً قبل أن يُوْجَد، وهٰذَا باطل[1].

ومثال بطلان الدَّوْر:

وجود البيض متوقف علىٰ وجود الدجاج. ووجود الدجاج متوقف علىٰ وجود البيض. فلو فرضنا أن لا وسيلة إلىٰ وجود هٰذَا ولا ذاك إلَّا عن هٰذَا الطريق فإن من البديهي أن كلّاً من الأمرين يظلان مَعْدُوْمَيْن حتىٰ يأتي مؤثر خارجي، يُوْجِد البيضَ ويُوْجِد الدجاجَ، فينتهي الدَّوْر عندئذٍ.

فإذا قيل:

إنَّ سببَ حدوثِ العالَم هو: التفاعل الذاتي في الموجودات بتَأْثِيْر الضغط والحرارة والبرودة بمرور الزمان.

أُجيب: بأنَّ هٰذَا هو الدَّوْر الباطل، لأنه يعني: أنَّ وجود العالَم متوقف علىٰ بعضه (الضغط والحرارة والبرودة...)، وبعضه متوقف في وجوده علىٰ العالَم. وهٰذَا يعني: تقدم الشيء علىٰ نفسه، وهو باطل كما تقدم[2].

معنىٰ التسلسل ودليل بطلانه:

التسلسل: هو أن يستند الممكن في وجوده إلىٰ عِلَّة مؤثرة فيه، وتستند تلك العِلَّة

للسَّنُوْسِيّ ص١٥٥ والمَطَالِب العالية للرَّازِيّ ج١ ص١٣٦ والمُحَصَّل للرَّازِيّ ص١٤٩ وكَشْف المُرَاد ص١١٧ والوسيلة في شَرْح الفضيلة ص٤٦١.

(١) انظر: شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٥.

(٢) كبرىٰ اليقينيات الكونية ص٨٩-٩٠.

المؤثرة إلىٰ عِلَّة أُخرىٰ مؤثرة فيها، وهَلُمَّ جَرّاً إلىٰ ما لا نِهَايَة[1].

فالتسلسل يعني: أنَّ المخلوقات متوالدة عن بعضها، إلىٰ ما لا نِهَايَة، بحيث يكون كل وَاحِد منها معلولاً لما قبله، وعِلَّة لما بعده، دون أن تنبع هٰذِهِ السلسلة من عِلَّة واجبة الوجود[2].

دليل بطلان التسلسل:

١- إنه يؤدي إلىٰ وجود آلهة لا نِهَايَة لها، كلٌّ منها متصفٌ بالحدوث والعجز والافتقار، وهو باطل قطعاً، لأنه منافٍ لمقام الأُلوهية من القدرة والغنىٰ المطلق، إذ العَاجِز الفَقِيْر لا يَصِحّ أن يكون خَالِقاً للعالَمِ البَدِيْع الإتقان[3].

٢- التسلسل منقوض بالحس والمشَاهدة، ذٰلِكَ لأن هناك مخلوقات انقرضت. فلو صح أنَّ الموجودات تتسلسل إلىٰ ما لا نِهَايَة - بأن تكون كلُّ حلقةٍ فيها معلولاً لما قبلها، وعِلَّة تامةً لما بعدها - لما انقرضت هٰذِهِ الموجودات، لأن الحلقةَ الأَخِيْرَةَ فيها معلولة فقط، وليست بعِلَّة كسابقتها[4].

٣- بُرْهَان التَّطْبِيْق وهو أشهر أَدِلَّة المتكلمين وهو:

أنك لو فرضتَ سلسلتين، وجعلت إحداهما من الآن إلىٰ ما لا نِهَايَة. والأُخرىٰ من الطوفان إلىٰ ما لا نِهَايَة. وطبقتَ بينهما بأن قابلتَ بين أفرادهما من أولها.

فكلما طَرْحت من الآنية (نسبة إلىٰ الآن، أي: الوقت الحاضر) حلقة وَاحِدَة، طَرْحتَ في مقابلتها من الطوفانية (نسبة إلىٰ الطوفان) وَاحِدَة وهٰكَذَا... .

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٤ ص١٦٠.

(٢) كبرىٰ اليقينيات الكونية ص٨٤.

(٣) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٥٦. وانظر: المُحَصَّل للرَّازِيّ ص١٤٩.

(٤) كبرىٰ اليقينيات الكونية ص٨٤ وما بعدها. وأشار إلىٰ كتاب: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين للأُستاذ الشيخ مُصْطَفَىٰ صبري ج٢ ص١٨٢.

فلا يخلو:

إما أن يفرغا معاً، فيكون كل منهما له نِهَايَة، وهو خلاف الفرض.

وإنْ لم يفرغا - كما فرضنا -، لزم مساواة الناقصِ للكَامِل، وهو باطل.

وإنْ فرغت الطوفانية دون الآنية، كانت الطوفانية متناهية، والآنية أَيضاً كذٰلِكَ، لأنها إنما زادت علىٰ الطوفانية بقدرٍ متناهٍ وهو ما من الطوفان إلىٰ الآن، ومن المَعْلُوْم أنَّ الزائد علىٰ شيء مُتَنَاهٍ بقدر مُتَنَاهٍ يكون متناهياً بالضرورة[1].

ومثال بطلان التسلسل:

١- إذا رأيت رقماً حسابياً طَوِيْلاً، يتراصف إلىٰ جانبه عدد كَبِيْر من الأصفار، فإنَّكَ تسرع لتنظر قبل كل شيء إلىٰ الرقم العددي الأول، وما لم تقع عيناك علىٰ ذٰلِكَ الرقم، فإنك لا تعطي قيمة للأصفار الكثيرة، ما لم تستند إلىٰ رقم ذاتي قبلها، لأن الرقم الذي يملك قيمة ذاتية في داخله، هو الذي يضفي الحياة والقيمة علىٰ الأصفار المتسلسلة التي عن يمينه، فسلسلةُ الأصفار التي لم تنتهِ إلىٰ رقم عددي هي خالية عن أية قيمة، وافتراض التسلسل اللانهائي فيها لا يجعل لها أية قيمة.

٢- لو ادعيتُ أمامك حقيقةً عِلْمِيَّة، وحين سألتني عن الدليل أَجَبْتُك ببُرْهَان يتوقفُ علىٰ بُرْهَان آخر. وحين سألتني عن بُرْهَان أجبتك ببُرْهَان يتوقف علىٰ آخر... وهٰكَذَا، فإنك تكذِّبني في دعواي، بل تكذِّبُ وجودَها أَصلاً.

فكلٌّ من هٰذِهِ البَرَاهِيْن المتسلسلة، التي فرضنا أنه لا نِهَايَة لها، ليست إلَّا ظلالاً تنتظر أصلها الأول. فإن لم يوجد ذٰلِكَ الأصل، فهٰذِهِ الظلال نفسها غير موجودة، ومن

---

(١) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٠٥. وانظر: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٤ ص١٦٧ وما بعدها، والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٢ ص١٢٠ وما بعدها، وكَشْف المُرَاد ص١١٩ والوسيلة في شَرْح الفضيلة ص٤٦١-٤٦٥.

ثم فإن الحقيقة المدعاة أيضاً تكون غير موجودة[1].

وإذا بطل الدَّوْر والتسلسل، بطل ما أَدَّىٰ إليهما، وهو كونُ موجِد العالَم ممكناً، وعندئذٍ وجب أن يكونَ الموجِدُ واجبَ الوجود.

ولا يَخرج عن هٰذَيْنِ الدليلين الدليلُ الذي ذكره بعض فَلَاسِفَة الغرب، وهو أقوىٰ الأَدِلَّة وأبسطها لديهم، المسمىٰ ببُرْهَان الخَلْق، أو الدليل الكوني[2].

الدليل الثالث: دليل العِنَايَة والاختراع (البُرْهَان العِلْمِيّ)

وهٰذَا الدليل هو أجلىٰ الأَدِلَّة علىٰ وجود الله تعالىٰ وأوضحها. وهو الذي ذكره ابن رُشْد في مناهج الأَدِلَّة باسم العِنَايَة والاختراع، وذكر أنه يمكن أن يتخذه:

أ- الجُمْهُوْر طريقاً لإثبات وجود الله تعالىٰ، فيقتصرون منه علىٰ ما هو مدرَك بالمَعْرِفَة الأُوْلَىٰ المبنية علىٰ الحس.

ب- والعُلَمَاء، فيَزِيْدُوْن علىٰ ما يُدرَك من هٰذِهِ الأشياء بالحس ما يُدرَك بالبُرْهَان.

---

(١) كبرىٰ اليقينيات الكونية السَّابِق.

(٢) **وملخص هٰذَا الدليل**: هو أن الموجودات لا بد لها من موجِد، لأننا نرىٰ كل موجود منها يتوقف علىٰ غيره، ويرىٰ غيره هٰذَا يتوقف علىٰ موجود آخر، دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته.

انظر: الكلام عن هٰذَا الدليل في: (الله) للعقاد ص١٩٢-١٩٣ وعَرَض لأحد طرقه وهو: دليل الحركة (بُرْهَان المحَرِّك الذي لا يتحرك) وفحواه: أن المتحَرِّك لا بد له من مُحرِّك، وأن هٰذَا المحَرِّك لا بد أن يستمد الحركة من غيره، وهٰكَذَا إلىٰ أن يقف العقل عند محَرِّك وَاحِد، لا تجوز عليه الحركة، لأنه قائم بغير حدود من المكان أو الزمان. وهٰذَا هو الله.

وانظر: دراسات في الفِرَق ص١٩٠ وما بعدها، وعرض لطريقتين من طرقه الخمسة المشهورة التي لخصها القديس توما الأكويني وهما: بُرْهَان الحركة، وبُرْهَان الإمكان والوجوب.

وهٰذَا الدليل هو الذي نبه عليه القُرْآن الكَرِيْم، واعتمده الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وبَيَان هٰذَا الدليل بشطريه فيما يأتي:

الأول: دليل العِنَايَة:

وهٰذَا يظهر في العِنَايَة بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله. ويبنىٰ علىٰ أصلين هما:

١- إن جميع الموجودات التي هٰهُنَا موافقةٌ لوجود الإنسان.

٢- إن هٰذِهِ الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قَاصِد لذٰلِكَ مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هٰذِهِ الموافقة بالاتفاق.

والموافقة تحصل باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذٰلِكَ موافقة الزمان والمكان الذي هو فيه أيضاً، والحيوان والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والنار والهواء... .

وكذٰلِكَ أيضاً تظهر العِنَايَة في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان. أي: كونها موافقة لحياته ووجوده.

ومن آيات القُرْآن الكَرِيْم التي بينت هٰذَا الدليل:

- قوله تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ - الفُرْقَان ٦١.

- قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ ﴾ - النبأ.

- قوله تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا

﴿ ٢٧ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٨ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٩ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٣٠ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣١ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣٢ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣ ﴾ - عَبَس.

الثاني: دليل الاختراع:

وهو ما يظهر من اختراع جَوَاهِر الأشياء الموجودات. كاختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل. ويدخل فيه: وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السماوات.

وهٰذَا الدليل يبنىٰ علىٰ أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس هما:

١- أن هٰذِهِ الموجودات مخترَعَة، فإنا نرىٰ أجساماً جمادية، ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعاً أنَّ هٰهُنَا موجِداً للحياة ومُنْعِماً بها، وهو الله تبارك وتعالىٰ.

وأما السماوات، فنعلم من قِبَلِ حركتها التي لا تفتر، أنها مَأْمُوْرَة بالعِنَايَة بما هٰهُنَا ومسخَّرة لنا، والمسخَّر المَأْمُوْر مخترَع من قبل غيره ضرورة.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ ﴾ - الحج ٧٣.

ب- إنَّ كل مخترَع فله مخترِع، فعلىٰ من أراد مَعْرِفَة اللهِ حقّ معرفته، أن يعرف جَوَاهِر الأشياء، ليقف علىٰ الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع.

- قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ - الأعراف ١٨٥.

- وقال تعالىٰ: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ ﴾ - الطارق.

- وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ - الغاشية ١٧.

وأما الآيات القُرْآنية التي تجمع بين هٰذَيْنِ الدليلين فمنها:

- قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ

تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ - البقرة.

فقوله تعالىٰ: ﴿ خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، تَنْبِيه علىٰ دلالة الاختراع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾، تَنْبِيه علىٰ دلالة العِنَايَة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ - آل عِمْرَان ١٩١[1].

والدليل العِلْمِيّ هو الذي أكد عليه العُلَمَاء في العَصْر الحاضر خاصةً، بعد أن اتسعَ نطاقُ العلم، وظهرت المخترعاتُ الحَدِيْثَة التي كانت سبباً في استكشاف آفاق الفضاء، والوقوف علىٰ أسرار الطبيعة، ومَعْرِفَة خفاياها، مما دعا رِجَال العلم في مُخْتَلف ميادينه إلىٰ أن يتحدثوا بقدرة الله تعالىٰ وإبداعه وعظمته وحيرة العقل الإنساني أمام تلك الأسرار في كل مخلوق.

وما نذكره هنا من نظرات في بعض ميادين العلم، ووقوف العُلَمَاء علىٰ بعض أسرار الكون، ما هي إلَّا مِفْتَاح للذهن، يدفعه للتفكير في أمر هٰذَا الكون المترامي الأطراف، ولا ريب فإن كل جزئية فيه ناطقة بربوبية (خَالِقية) الله تعالىٰ ووحدانيته.

فيا عَجَباً كيفَ يُعْصَىٰ الإلٰهُ ... أم كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وفي كُلِّ شَيءٍ لَه آيَةٌ ... تَدُلُّ علىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

ومن هٰذِهِ الأمثلة:

١ - النجوم عبارة عن كتل ملتهِبَة بعيدة عن الأرض.

---

(١) مناهج الأدِلَّة في عَقَائِد المِلَّة لابن رُشْد ص١٥١-١٥٥ ونقله الدكتور عِرْفَان عبد الحميد في: دراسات في الفِرَق ص١٧٥.

فأقرب نَجْم إلينا يساوي أربع سنوات وربع من السنين الضوئية[1]. وألمع نَجْم نراه في السماء هو نَجْم الشِّعْرَىٰ اليَمَانِيَّة، والذي عَبَدَهُ فريقٌ من العَرَب قبل الإسلام، يبعد عنا ثماني سنوات ونصف من السنين الضوئية[2].

وأعلن الفلكيون عن رصدهم نَجْماً يبعد عنا اثْنَي عَشَر ونصف بليون (والبليون يساوي مليون مليون) سنة ضوئية[3].

ودرجات حرارة سطوحها متفاوتة. لذا اختلفت ألوانها من أَحْمَر داكن إلىٰ أَحْمَر فاتح إلىٰ برتقالي إلىٰ أصفر إلىٰ أبيض إلىٰ أزرق، فالنجوم الزرقاء تصل درجة حرارة سطوحها عشرات الأُلوف من الدرجات.

ودرجة حرارة سطح نَجْم الشِّعْرَىٰ اليَمَانِيَّة تبلغ أحد عشر ألف درجة مئوية.

أما حجومها، فمنها ما يقدر بحجم الشمس، ومنها ما ينقص عنها أو يَزِيْد عليها بعشرات أو مئات بل آلاف وملايين المرات.

٢- المَجَرَّات: يقول الأُستاذ (جامو): إنَّ (هبل) مدير مرصد مونت ولسن، نظر بمرصده إلىٰ مسافة تقرب من ٥٠٠ مليون سنة ضوئية، وأحصىٰ من المَجَرَّات الخارجية نحو ١٠٠ مليون مَجَرَّة، وأنه يحتمل وجود مَجَرَّات أُخرىٰ علىٰ مسافات أعظم لم يشَاهدها هبل. ويقول: إنَّ مَجَرَّتنا يبلغ قُطرها مئة ألف سنة ضوئية، وسمكها عشرة آلاف سنة ضوئية، وهي تجري بسرعة عَظِيْمَة جداً.

٣- يتمدد الفضاء بشكل عَظِيْم. وقدَّروه - كما يقول السير جيمس جينز - بنحو

---

(١) **السنة الضوئية**: هي المسافة التي يقطعها الضَّوْء خلال سنة وَاحِدَة، وذٰلِكَ نحو ستة ملايين مليون ميل، علماً بأن الضَّوْء يسير مقدار (١٨٦) ألف ميل بالثانية الوَاحِدَة.

(٢) التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية في القُرْآن ص٥٦و٥٩و٦٢.

(٣) النشرة الفلكية الأخبارية من مديرية الرعاية العِلْمِيَّة ببَغْدَاد.

مائة وخمسة أميال في الثانية الوَاحِدَة، لكل بُعْدٍ قدرُهُ مليون سنة ضوئية[1].

٤- وشمسنا هٰذِهِ يبلغ حجمها نحو مليون وثلاثمائة قدر حجم الأرض. وهي كتلة من صخور، ومعادن سَائِلَة، وغازات محترقة، تبلغ درجة حرارة سطحها ستة آلاف درجة مئوية، ودرجة حرارة مركزها تبلغ عشرين مليون درجة مئوية.

وطاقتها الحرارية - ومثلها النجوم المُشِعَّة - ناتجة عن تفاعلات نووية حرارية تحدث في مراكزها، حين تتحطم الذرة في بَاطِن الشمس، تحت وطأة الحرارة العالية جداً.

ويبلغ لِسَان اللهيب ١٤٠ كم في الأحوال العادية، أما في الانفجارات المستمرة، فيبلغ بعدُ قذائفها آلاف الأميال[2].

٥- القمر تابع للأرض، يبعد عنها ٢٨٦ ألف ميل، فلو بَعُدَ عنها ٥٠ ألف ميل، لَغطَّىٰ الماء في المدّ الأرضَ كلها، ويكون عمقه بمُعَدَّل ميل ونصف، والمدّ في الهواء يُحدث الأعاصير كل يوم... إلخ. لأن جاذبية القمر - في الوضع الحالي - تجذب مياه المُحِيْط إلىٰ ستين قدماً في بعض الأماكن، وتحني قشرة الأرض مرتين نحو الخارج يومياً، مسافة عدة بوصات[3].

٦- تدور الأرض حول الشمس بسرعة ١٨,٥ ميل في الثانية تَقْرِيْباً، في فَلَكٍ طولُه

---

(١) التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية ص٥٦-٦٩.

(٢) التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية ص٦٥-٦٨ و٧٣ و٧٥ و٨٥ والعلم يدعو للإيمان طَبْعَة ٤ ص٥٥ ومع الله في السماء ص١٤٦.

(٣) العلم يدعو للإيمان ص٥٧-٥٨.

يجري القمر في فلكه بمقدار ٢٣٠٠ ميل بالساعة، ويلفُّ حولَ نفسه مرةً في كل دورة في فلكه شهرياً، ولذٰلِكَ يواجه الأرضَ بجانب وَاحِد دائماً، فنرىٰ أوجه الضِّيَاء المُخْتَلِفَة، من هلال إلىٰ بَدْر وبالعكس. / التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية ص٦٧-٦٨.

٦٠٠ مليون ميل.

وتدور الأرض حول نفسها بسرعة قدرها ١٠٠٠ ميل بالساعة (أي: مرة كل ٢٤ ساعة).

فلو فرضنا أنها تدور حول نفسها بمُعَدَّل ١٠٠ ميل بالساعة، فعندئذٍ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات، فتحرق الشمس النباتات نهاراً وتتجمد ليلاً.

ولو فرضنا أنها تدور حول الشمس بسرعة ٦ أميال في الثانية أو ٤٠ ميلاً، لكان قربنا وبعدنا عن الشمس يجعل حياتنا مستحيلة[١].

٧- والماء الذي يكوِّن أربعة أخماس الكرة الأرضية، يتكون من غاز: ذرتين هيدروجين وذرة أُوكسجين: H_2O، والهواء يتكون من عنَاصِر، بنسب معينة عَظِيْمَة الأهمية للحياة، إذا اختلت لم تستقم الحياة.

٨- وملح الطعام الذي تستحيل حياة الإنسان بدونه، يتكون من أخطر عنصرين هما: الصوديوم الذي يدخل في تَرْكِيْب المتفجرات، والكلور الغاز الخانق القاتل: NaCl.

---

(١) التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية ص٦٧ والعلم يدعو للإيمان ص٥٥.

ولو كانت قشرة الأرض أسمك عشرة أقدام، لنفد الأُوكسجين، وانعدمت الحياة.

ولو كانت البحار أعمق بضعة أقدام مما هي عليه الآن، لانجذب الأُوكسجين وثاني أُوكسيد الكاربون فاستحالت الحياة.

ولو كان جو الأرض أَرَقَّ مما هو عليه، لتهاوت النيازك فأحرقت الأرض. / الإسلام يتحدىٰ ص٥٩.

لأن النيازك والشهب تتهاوىٰ في كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، وهي تسير بسرعة ستة أميال إلىٰ أَربَعِين ميلاً في الثانية، فلو لم يكن ذٰلِكَ مَانِعاً لأحرقت الأرض ومن فيها، إذ إن الإنسان إن اصطدم بشِهَاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، كان يمزقه إرْباً من مجرد حرارة مروره. / العلم يدعو للإيمان ص٦٥.

٩- إذا نظرت في المجهر إلىٰ قطرة من المياه الآسنة، تجد عالَماً من الأحياء فيه العجائب[1].

١٠- الزُّنْبور حين يصيد الجُنْدُب، يخدِّره، فيحمله، ليتغذىٰ عليه صغاره حين يولدون[2].

١١- لو أن ذبابتين توالدتا، ولم يأت الموت عليهما وعلىٰ خَلَفِهما، فإنه بعد خمس سنوات، يَتكون من الذباب ما يمكن أن يشكل طبقة حول الكرة الأرضية، ارتفاعها ٥ سم. وهٰذا جنس وَاحِد، فكيف بالمخلوقات جَميعاً، إذا لم يأت عليها الموت؟[3].

١٢- والإنسان ذٰلِكَ اللغز المحير للعقل، يتكون من عنَاصِر تساوي: برميلاً صَغِيْراً من الماء. مع عنَاصِر مَعْدَنِيَّة تكوّن مسماراً صَغِيْراً، ورأس عود ثقاب من الكبريت، وكمية من الكلس يمكن أن يُطلىٰ بها جدار، وعنَاصِر أُخرىٰ قليلة جداً لا تساوي قيمتها نصف دِيْنَار، والسر لا يكمن في نوعية المواد، وإنما يكمن في تَرْكِيْبِها، وتكوين ذرات الخلية، ثم التَّرْكِيْبَات الحيوية المتولدة في الجسم[4].

- فالإنسان يَتِمّ سَمَاعه بدخول الصوت إلىٰ الصيوان، ثم إلىٰ داخل الأُذن، ويمر

---

(١) هٰذِهِ من الأُمور الأولية التي يدرسها الطُّلَّاب في علم الكيمياء.

(٢) الله: سَعِيْد حوىٰ ص٧٦.

- عشّ بعض العناكب يكون علىٰ شكل منطاد تحت الماء، ينفخ بفقاعات الماء، التي تحملها في شعر تحت جسمها، وعندئذٍ تلد صغارها، لا يؤثر عليها هبوب الرياح. / العلم يدعو للإيمان ص١١٩.

- يطير الخفاش ليلاً، وهو الضعيف البصر، ولا يصطدم بحاجز، لأنه يرسل اهتزازات ترجع إليه إذا اصطدمت بجسم أمامه، فيحس به دون أن يراه، وهٰذَا شبيه بالرادار. / الله: سَعِيْد حوىٰ ص٩٨.

(٣) الله: سَعِيْد حوىٰ ص٩٢.

(٤) الطب محراب للإيمان ص٥٩.

بجزء فيه ٤٠٠٠ حنية (قوس)، تشبه سُلَّماً موسيقياً، تنقل إلىٰ المخ بشكل ما[١]، أما كيف يحصل فهم المسموع؟ وكيف يَتِمّ تَمْيِيْز الأصوات العديدة جداً عن بعضها البعض؟ وأين تقع خزائن الذَّاكِرَة للمسموعات...؟ فهٰذِهِ لم يُتَوَصل إليها[٢].

وهٰكَذَا في بقية الحواس الأُخرىٰ.

- في جسم الإنسان ألف مليون مليون خلية، ويستهلك الجسم من خلاياه حوالي ١٢٥ مليون خلية في الثانيةالوَاحِدَة. وعدد خلايا الجُمْلَة العَصَبِيَّة المركزية (المخ والمخيخ والجذع الدماغي) يقدر بحوالي ١٤ مليار (المليار يساوي ألف مليون) خلية عَصَبِيَّة، تسيطر علىٰ نشاط البدن وفعاليته، ويكمن فيها النشاط الفكري والشخصية الإنسانية[٣].

- بصمة الإصْبَع لأي شخص امرأة أو طفل أو رجل، لا تشبه بصمةَ أي شخص آخر، ولذا تتخذ التَّحْقِيْقات الجنائية بصمات الأصابع دليلاً علىٰ كَشْف هوية المجرمين.

- أما العَمَلِيَّات المحيرة الدقيقة التي تجري في البصر، وسائر الحواس، والتخلق الإنساني، وتكوُّن الخلايا، ووزارات الجسم وغيرها، فإنه ليعجز عن وصفها القلم، وكلها ألغاز محيرة وأسرار مدهشة، بقي الكثير منها طي الكتمان، حتىٰ يحين الوقت لكَشْف شيء منه.

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص١١٩.

(٢) الطب محراب للإيمان ص١٩١-١٩٢.

(٣) الطب محراب للإيمان ص٩٤ وما بعدها و ص٤٠-٤٢. ذكر الرَّازِيّ في المَطَالِب العالية ج١ ص٢١٨ وما بعدها الاستدلال علىٰ وجود الإله الحَكِيْم الرَّحِيْم بكيفية تولد الإنسان من النطفة. و ص٢٣٣ وما بعدها ببناء العالم علىٰ الوجه الأصلح وعجائب المخلوقات، وأقوال الأكابر في ذٰلِكَ.

وبعد هٰذَا نَقُوْل: هٰذِهِ أمثلة يَسِيْرَة[1] مما ذكره العُلَمَاء من نظرات في أرجاء هٰذَا الكون الفسيح، الذي يقف أمامها الإنسان مشدوهاً حائراً، نتساءل فيه: من دبَّره؟ ومن كوَّنه؟ ومن سيَّره علىٰ هٰذَا الشكل البَدِيْع المتناسق، الذي يكشف العلم يوماً بعد آخر عجائب هٰذَا النِّظَام الذي يجري عليه هٰذَا الكون؟ أهٰذَا من صنع الإنسان الذي يعجز عن أن يدفع عنه المكروه، ويعجز عن أن يغير ما في الطبيعة من ظروف قاهرة كالمطر والفيضان والرياح... إلخ؟

إنَّ العاقل ليدرك أنَّ تآلف هٰذِهِ الجزيئات علىٰ هٰذَا النَّحْو، الذي تتجلىٰ فيه صورة الحياة، واستمرار هٰذَا التآلف والحياة مدىٰ الأزمان، لا يتخلف ولا يتريث، لم يكن من صنع الطبيعة الصماء العمياء.

إنَّ التَّفْسِيْر الحقيقي لهٰذَا النِّظَام، هو أن تؤمن بقدرة خارقة، وقوة جَبَّارَة، وعظمة إلٰهِيَّة، بسطت يديها، فسيرت الكون علىٰ النَّحْو العجيب الذي نراه.

ودليل العِنَايَة والاختراع هو الذي ذكره بعض فَلَاسِفَة الغرب باسم الدليل الغَائِيّ أو بُرْهَان الغَايَة، الذي يتخذ من المخلوقات دليلاً علىٰ وجود الخَالِق. وهٰذِهِ المخلوقات تدل علىٰ قصد في تكوينها، وحكمة في تسييرها وتدبيرها، فالنِّظَام والقصد والانسجام والحكمة الظَّاهِرَة في الطبيعة ومظَاهِرها المُخْتَلِفَة المتنوعة، طريقٌ ظَاهِرَة لإثبات وجود الله تعالىٰ[2].

---

(١) انظر أمثلة أُخرىٰ في: الكتب التي أشرنا إليها، وكتاب الله يتجلىٰ في عَصْر العلم لجَمَاعَة من العُلَمَاء، ومع الله في السماء للدكتور أَحْمَد زَكِيّ، والإنسان ذٰلِكَ المجهول للدكتور الكسيس كارل، وكُتُب عبد الرَّزَّاق نوفل، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر، والطريق إلىٰ النجوم لفان درويت ولِلي ترجمة الدكتور عُمَر فروخ، والنجوم في مَسَالِكها للدكتور جيمس جينز.

(٢) الله: العقاد ص١٩٦-١٩٧ ودراسات في الفِرَق ص١٧٩.

الدليل الرابع: الدليل الوجودي

ويسمىٰ بُرْهَان الاسْتِعْلَاء والاسْتِكْمَال، أو بُرْهَان المثل الأعلىٰ.

وقد صاغه القديس أَنْسِلِم في صورته الأُوْلَىٰ، وقد صدر عن مبدأ معترف به من المُؤْمِنين والملحدين جَميعاً، وهو: أنَّ فكرة الإلٰه موجودة في العُقُوْل، فالملحدون لا يجحدون تصورهم للأُلوهية، وإنما يجحدون وجود الإلٰه.

ونقَّح هٰذَا الدليل اللاحقون بأَنْسِلِم، حتىٰ بلغ كَمَاله في فلسفة ديكارت، وأوشك أن ينسب إليه، وفحواه في صورته الجَامِعَة:

أنَّ العقل الإنساني كلما تصور شَيئاً عَظِيْماً، تصور ما هو أعظم منه، لأن الوقوف عند مرتبة قاصرة يحتاج إلىٰ سبب، والعقل الإنساني لا يعرف سبب القصور، فما من شيء كَامِل إلَّا والعقل الإنساني متطلع إلىٰ أَكْمَل منه، ثم أَكْمَل منه، إلىٰ نِهَايَة النهايات، وهي غَايَة الكَمَال المطلق التي لا مَزِيْد عليها ولا نقص فيها. وهٰذَا الوجود الكَامِل موجود لا محالة، لأن وجوده في التصور أقل من وجوده في الحقيقة، فهو في الحقيقة موجود. لأن الكَمَال المطلق ينتفي عنه بسبب عدم الوجود، ولا يبقىٰ له شيء من الكَمَال، بل نقص مطلق، وهو عدم الوجود. فمجرد تصور هٰذَا الكَمَال مثبت لوجوده[1].

الدليل الخامس: الدليل الأخلاقي

وقد صاغ هٰذَا الدليل الفيلسوف الألماني كنت. وصورته هي:

أنَّ علامة الوازع الأخلاقي، أو علامة الواجب، أو علامة الضمير، لا توجد في النفس الإنسانية بغير وجود إلٰه، إذ كيف يدين الإنسان نفسه بالحق، إن لم يكن في الكون

---

(١) الله: العقاد ص٢٠٠. وانظر: دراسات في الفِرَق ص١٨٦ وما بعدها، وفيه رأي أَنْسِلِم وديكارت وسبينوزا وغيرهم.

قسطاس للحق يغرس في نفسه هٰذَا الوجوب؟ وكيف تقرر في طبع الإنسان، أَنَّ الواجب الكريه لديه أَوْلَىٰ به من طاعة الهوىٰ المحبب إليه، وإن لم يطلع علىٰ دخيلة سره أحد؟

فإن قيل:

إنَّ العادة الاجتماعية هي التي رسخت في النفس، حتىٰ استحالت إلىٰ رغبة مقبولة، أُجيب:

بأن مَعْرِفَة السبب لا تقضي بإبطال الغَايَة أو بفقدان الحكمة، فنحن نعلم أَنَّ القطار يتحرك بغليان المِرْجَل فيه. وأنَّ المُهَنْدِس قد مد قضبانه، لأنه يكافأ علىٰ مدها بأجر يحتاج إليه. وأنَّ نُظَّار المحطات يسيِّرون حركة القطار، لأنهم مجزيون علىٰ ذٰلِكَ، أو معاقبون علىٰ إهماله.

ولٰكِن ذٰلِكَ كله، لا يُبْطِلُ الغَايَة، ولا يقضي بمسير القطار لغير حكمة، وقيام العَمَل كله بغير تدبير[1].

المصادفة

قالوا: إنَّ المصادفة هي التي أوجدت، ودبرت ما في الكون علىٰ هٰذَا الشكل.

والجواب: لا بد من التفريق بين أمرين:

أولهما: خلق الشيء. وفكرة المصادفة تُستبعد منه، لأنه يؤدي إلىٰ الدَّوْر الباطل كما تقدم.

ثانيهما: تَرْتِيْب الشيء وتَرْكِيْبه. وهي محل النَّظَر والبَحْث.

صيغة **قَانُوْن المصادفة** الحرفية هي: (أنَّ حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص، بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة المزدحمة).

---

(١) انظر: الله: العقاد ص٢٠٠-٢٠١. وانظر تفصيل هٰذَا القول في: دراسات في الفِرَق ص١٩٨.

لٰكِن تَطْبِيْق هٰذَا القَانُوْن، إنما يَتِمّ علىٰ المادة غير الحية، فدراسة الاحتمال علىٰ ضغط غاز في وعاء أو خليط من غازات قد يَصِحّ، ولٰكِن علىٰ الخلية والأحياء الأُخرىٰ فإنه يقف، لأن الترابط في الخلية مع ظَاهِرَة الحياة معجز ومحير، إلىٰ حدٍّ يجعل هٰذَا القَانُوْن غير ساري المفعول في هٰذَا المجال[1].

ولكي نفهم هٰذَا القَانُوْن وعدم سريانه لا بد من الأمثلة، منها:

١- يقول الأُستاذ كريسي موريسون: ضع عشرة بنسات مرقمة من ١-١٠ في كيس وابدأ بسحبها، ترىٰ أنَّ:

فرصة سحب رقم ١ هي بنسبة ١ إلىٰ ١٠، لأن كل رقم قد يكون له الحظ بالسحب.

وفرصة سحب رقم ١و٢ مُتَتَابِعَيْن هي بنسبة ١ إلىٰ ١٠٠.

وفرصة سحب رقم ١و٢و٣ متتابعات هي بنسبة ١ إلىٰ ١٠٠٠.

وفرصة سحب رقم ١و٢و٣و٤ متتابعات هي بنسبة ١ إلىٰ ١٠٠٠٠.

وهٰكَذَا... حتىٰ تصبح فرصة سحب الأرقام من ١ إلىٰ ١٠ متتابعة، هي بنسبة ١ إلىٰ ١٠ مليارات[2].

٢- لو فرضنا أنك تملك عدداً هائلاً من الحروف، إذا حاولتَ آلاف المرات سحب حرف بعد حرف من هٰذِهِ المجاميع الكَبِيْرَة، وسطَّرتها وَاحِداً بعد الآخر، فهل يظهر لك، مهما كررت عَمَلِيَّة السحب، ديوانُ المتنبي أو إلياذة هوميروس أو القُرْآن الكَرِيْم...؟

٣- يقول الأُستاذ فرانك ألن: البروتينات من المركبات الأَسَاسِيَّة في جميع الخلايا الحية. تتكون من خمسة عنَاصِر هي: الكربون والإيدروجين والنيتروجين والأُوكسجين

---

(١) الطب محراب للإيمان ص١٤.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص٥١ والطب محراب للإيمان ص١٥.

والكبريت.

ويبلغ عدد الذرات في الجُزَيْء البروتيني الوَاحِد ٤٠٠٠٠ ذرة، ولما كان عدد العنَاصِر الكيمياوية في الطبيعة ٩٢ عنصراً، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً، فإنَّ احتمال اجتماع هٰذِهِ العنَاصِر الخمسة، لكي تكوِّن جزيئاً من جزيئات البروتين، يمكن حسابه، لمَعْرِفَة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً، لكي تؤلف هٰذَا الجُزَيْء، ثم لمَعْرِفَة طول الفترة الزمنية اللازمة، لكي يحدث هٰذَا الاجتماع بين ذرات الجُزَيْء الوَاحِد.

وقد قام العالم الرِّيَاضي السويسري شارلس يوجين جاي بحساب هٰذِهِ العوامل جيداً، فوجد:

أنَّ الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جُزَيْء بروتيني وَاحِد، إلَّا بنسبة ١ إلىٰ (١٠)[١٦٠] (أي بنسبة ١ إلىٰ الرقم ١٠ مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة)، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات.

وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هٰذَا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جُزَيْء وَاحِد أكثر مما يتسع له كل هٰذَا الكون بملايين المرات.

ويتطلب تكوين هٰذَا الجُزَيْء علىٰ سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة مدة (١٠)[٢٤٣] (أي عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين).

وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب. ليثز الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة البروتينات فوجد أنَّ عددها (١٠)[٤٨].

وعلىٰ ذٰلِكَ فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هٰذِهِ المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً وَاحِداً. ولٰكِن البروتينات ليست إلَّا مواد كيمياوية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلَّا عندما يحل فيها ذٰلِكَ السر العجيب، الذي لا ندري من كُنْهه شَيئاً، إنه العقل

اللانهائي، وهو الله وحده[1].

---

(١) الله يتجلىٰ في عَصْر العلم ص٩-١٠.

وقال الأُستاذ ليثز في خطاب الرئاسة السنوي بقسم الفزيولوجي في جَامِعَة أكسفورد عام ١٩٣٦م ما فحواه: إن كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات، وإن كل حلقة منها هي تَرْكِيبَة من ذرات، قوامها حمض من الأحماض النوشادرية، وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين، ويجوز أن يقع كل منها موقعه علىٰ اختلاف في النسبة والتَّرْتِيْب، ولٰكِننا لا نراها في بعض الأَنْسِجَة إلَّا علىٰ تَرْتِيْب وَاحِد ونسبة وَاحِدَة بغير شُذُوْذ ولا اختلاف. فهل تستطيع أن تتخيل مبلغ الدقة في هٰذِهِ الإصَابَة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألوفة؟

يكفي لتَقْرِيْب هٰذِهِ الدقة من الخيال، أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لُغَات البشر كافة، لا تتجاوز الثلاثين، ويتألف من تراكيبها المُتغيرَة كل ما تلفظ به الأُمَم من الكلمات والعبارات، فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي قابلة لأضعاف ذٰلِكَ التكرار، ثم لا نشَاهد فيها إلَّا كلمة وَاحِدَة في تَرْتِيْب وَاحِد لا يتغير، فقد عرفنا علىٰ التَّقْرِيْب معنىٰ تلك الإصَابَة في التوثيق والتَّرْكِيْب.

يقول الأُستاذ ليثز لتَقْرِيْب هٰذَا الخيال: إن الضَّوْء يصل من طرف المَجَرَّة إلىٰ الطرف الآخر في ثلاثمائة ألف سنة، فإذا أردنا أن نشبه إصَابَة الخلية في تَرْكِيْبها بمَثَل مفهوم، فهٰذِهِ الإصَابَة تضارع إصَابَة الرصاصة التي تنطلق من الأرض، فتصيب هدفاً في نهر المَجَرَّة بحجم عَيْن الثور ولا تخطئه مرة من المرات، وهٰذَا علىٰ فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط، وليست بضع مئات. / الله: العقاد ص٢٠٦-٢٠٧.

وقال العالم جون كليفلاند كوثران: وقد أثبت اكتشاف تَرْكِيْب الذرة، أنَّ التفاعلات الكيمياوية التي نشَاهدها، والخواص التي نلاحظها ترجع إلىٰ وجود قوانين خاصة، وليست محض مصادفة عمياء...

ومع ما يبدو من التعقيد في تَرْكِيْب كل ذرة من ذرات العنَاصِر العديدة، فإنها تتكون جَمِيعاً من نفس الأنواع الثلاثة من الجزيئات الكهربية، وهي البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة والنيترونات، والتي يعتبر كل منها ناشئاً عن اتحاد بروتون وَاحِد مع إلكترون وَاحِد.

٤- يقول العُلَمَاء بأن الإلكترون في الذرة يدور حول البروتون بسرعة ١ من ١٠٠ من سرعة الضَّوْء، ولٰكِن لا يمكن بالضبط مَعْرِفَة أين توجد الإلكترونات في لحظة معينة؟

ووزن أجزاء الذرة كما يأتي:

وزن البروتون: هو جزء من مليون مليار مليار من الغرام تَقْرِيْباً.

ووزن النيترون: يقترب بالوزن من البروتون.

أما وزن الإلكترون: فإن البروتون يساوي ١٨٣٧ مرة وزن الإلكترون.

وأبعاد أجزاء الذرة كما يأتي:

الذرة تشبه شكلاً كروياً يساوي قطرها جزءً من مئة مليون من السنتمتر. وقطر النواة أصغر من الذرة بعشرة آلاف مرة.

فهناك فراغ هائل بين البروتونات والإلكترونات، يدعو إلىٰ الدهشة والحيرة، ولو أنَّ عشرة ملايين ذرة اجتمع بعضها بجانب بعض، فإنها تبلغ طولاً قدره مليمتر وَاحِد.

والغرام الوَاحِد من الهيدروجين فيه ٦٠٠ ألف مليار مليار ذرة[1].

٥- يقول الدكتور واين أولت: هل تم اختراع جهاز الراديو نتيجة للمصادفة، أم

وجميع البروتونات والنيترونات التي بالذرة تقع في نواة مركزية، أما الإلكترونات فإنها تدور حول محاورها، في مدارات مُخْتَلِفَة حول النواة، وعلىٰ أبعاد شاسعة منها، مكونة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة. وعلىٰ ذٰلِكَ فإن معظم حجم الذرة، يعتبر فراغاً، كما هي الحال في المجموعة الشمسية.

والفرق بين ذرة عنصر معين وعنصر آخر، يرجع إلىٰ الفرق في عدد البروتونات والنيترونات التي بالنواة، وإلىٰ عدد وطريقة تنظيم الإلكترونات التي في خارج النواة. / الله يتجلىٰ في عَصْر العلم ص٢٣-٢٤.

(١) الطب محراب للإيمان ص٢٥ وما بعدها، وفيه الكلام عن الذرة وبنائها ووزنها وأبعادها وأسرارها المدهشة.

عن طريق التصميم والاختراع؟

ثم هل تم تكوين جهاز الرادار الموجود بجسم الوطواط، والذي لا يحتاج من الحيوان إلىٰ انتباه، ولا يتطلب منه إصْلَاحاً، والذي يستطيع أن يورِّثه لذريته عبر الأجيال؟

نَقُوْل: هل تم كل ذٰلِكَ عن طريق المصادفة، أم عن طريق التصميم والإبداع؟ إنَّ الخبرة العِلْمِيَّة للإنسان تقوم علىٰ التصميم وعلىٰ إدراك الأسباب، وعلىٰ ذٰلِكَ فإن المشتغل بالعُلُوْم هو أول من يجب عليه التَّسْليم منطقياً بوجود عقل مُبْدِع، لا حدود لعلمه أو قدرته، موجود في كل مكان، يحيط مخلوقاته برعايته[1]. ولذٰلِكَ:

قال الرِّيَاضي الكَبِيْر جوزيف برترند: إنَّ المصادفة ليس لها وجدان ولا ذَاكِرَة[2].

وقال بول كلارنس ابرسولد: إنَّ هٰذَا النِّظَام الرائع المَعْقُوْل الذي يسود هٰذَا الكون، يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وإنَّ معجزة وَاحِدَة في حد ذاتها لها بِدَايَة، كما أنَّ وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان[3].

وقال أحد كبار عُلَمَاء الطبيعة: إنَّ العلم لا يملك أي تَفْسِيْر للحَقَائِق، والقول بأنه حدثت (اتفاقاً) إنما يعتبر تحدياً وتصادماً مع الرِّيَاضيات[4].

وقال شادفاش: إنَّ من الممكن أن نسأل أيّ رجل مُؤْمِناً بالله كان أو مُنْكِراً له، نسأله أن يُثبت، كيف يمكن أن يكون هٰذَا التوازن في صالحه، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة؟[5].

وقد عُدَّ أفلاطون من أوائل الفَلَاسِفَة القائلين بوجود الله تعالىٰ، وبأنه الخَالِق

---

(١) الله يتجلىٰ في عَصْر العلم ص١٣٢.
(٢) الطب محراب للإيمان ص١٤.
(٣) الله يتجلىٰ في عَصْر العلم ص٣٨.
(٤) الإسلام يتحدىٰ ص٦٠.
(٥) الإسلام يتحدىٰ ص٥٦.

للعالَم، والمدبر لأمره. وبرهن علىٰ ذٰلِكَ بعدة بَرَاهِيْن أهمها: **بُرْهَان النِّظَام**، حيث قال: إنّ العالَم آية في الجمال والنِّظَام. ولا يمكن أبداً أن يكون هٰذَا نتيجة علل اتفاقية (مصادفة)، بل هو صنع عاقل كَامِل، توخىٰ الخَيْر، ورتب كل شيء عن قصد وحكمة[1].

وقد تناقلت وكالات الأنباء ومنها وكالة تاس السوفيتية سنة ١٩٥٩م ما يأتي: أعلن الكسندر أوبارين رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا، بعد أن ظل يبحث ٣٧ عاماً في أصل الحياة، وعما إذا كان من الممكن إيجاد الخلية الأُوْلَىٰ عن طريق تفاعل كيمياوي قائلاً: (إنَّ الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، أو أن تتوالد من التفاعل الكيمياوي والتوالد الذاتي، وإن العلم لا يمكن أن يخوض فيها وراء حدود المادة)[2].

وبعد هٰذَا كله نقول:

بعد أن انتفت المصادفة في خلق هٰذَا الكون، وفي تَرْتِيْب مخلوقاته، وبعد إقامة الدليل علىٰ أن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ هو خَالِق الكون ومدبر أمره، ثبت بالدليل العقلي والعِلْمِيّ الذي لا يقبل الرَّيْب، أنَّ الله تعالىٰ واجب الوجود وأنَّه مُوْجِد الكون ومبدأ المخلوقات.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ - سورة الإخلاص.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ - البقرة ٢٥٥.

---

(١) قصة الإيمان ص٤٠. ودراسات في الفِرَق ص١٩٥ نَقْلًا عن قصة الإيمان. وانظر: الأديان لـ د. رشدي عليان و د. سَعْدون الساموك ص٧٧.

(٢) كبرىٰ اليقينيات الكونية ص١٣١.

لا محل للإلحاد في الذهن المتفتح

قال الدكتور جون كليفلاند كوثران: قال لورد كيلفي: وهو من عُلَمَاء الطبيعة البَارِزِيْن في العالَم – هٰذِهِ العبارة القَيِّمة: (إذا فكَّرتَ تفكيراً عميقاً، فإنَّ العُلُوْم سوف تضطرك إلىٰ الاعْتِقَاد في وجود الله)، ولا بد أن أُعلن موافقتي كل الموافقة علىٰ هٰذِهِ العبارة[1].

ويقول الفيلسوف الإنجليزي بيكون: (إنَّ قليلاً من الفلسفة يقرِّبُ الإنسان من الإلحاد، أما التعمق في الفلسفة فيردُّه إلىٰ الدِّيْن)[2].

وقال الدكتور وتز عميد كُلِّيَّة الطب بباريس وعضو أكاديمية العُلُوْم وكيميائي: (إذا أحسست في حين من الأَحْيَان أنَّ عقيدتي بالله قد تزعزعت، وجهتُ وجهي إلىٰ أكاديمية العُلُوْم لتثبيتها).

وقال باسكال: (صنفان فقط من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء: الذين يعرفون الله، والذين يجدُّون في البَحْث عنه، لأنهم لا يعرفونه).

وقال انشتاين: (إنَّ الإيمان هو أقوىٰ وأنبل نتائج البحوث العِلْمِيَّة).

وقال أَيضاً: (إنَّ الإيمان بلا علم، لَيَمشي مشية الأعرج. وإنَّ العلم بلا إيمان، ليتلمس تلمس الأعمىٰ).

وقال ادمون هربرت، وهو جيولوجي ذائع الصيت، ومدرس بجَامِعَة السوربون: (العلم لا يمكن أن يؤدي إلىٰ الكفر، ولا إلىٰ المادية، ولا يفضي إلىٰ التشكيك)[3].

---

(١) الله يتجلىٰ في عَصْر العلم ص٢١ وقريب من هٰذَا ما قاله العالم الطبيعي (أوليفر وندل) ص٥٢.

(٢) الله يتجلىٰ في عَصْر العلم ص٣٥.

(٣) الطب محراب للإيمان ص٢٥٧ وروح الدِّيْن الإسلامِيّ ص٦١.

هٰذَا هوالصواب، لأن الحق لا ينطلي علىٰ العُلَمَاء المتنورين، الذين يدركون الأدِلّة التي ذكرناها آنِفاً، والتي تثبت وجود الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ.

أما الذين ينكرون وجود الله، بحُجَّة أنهم لم يدركوه، بحواسهم، فهٰؤُلَاءِ يتصورون بأن الحواس هي طريق المَعْرِفَة.

إن واقعهم يكذبهم فهم يؤمنون بالجاذبية والمغناطيسية والكهربائية، وبوجود الإلكترون والبروتون والنيترون، وبوجود العقل، ولم يروا شَيئاً منها، بل رأوا آثارها فقط.

فمن أنكر وجود الله تعالىٰ بحُجَّة أنه لم يره، وآمن بما ذكرت، فما هو إلَّا مخادع لنفسه، لأن العقل هو الذي أدرك هٰذِهِ الأُمور وغيرها وليست الحواس، لأنها خادعة أَحيَاناً، وما الحواس إلَّا آلات أعطت العقل أدوات الحكم ليصدر حكمه.

خداع الحواس

لا يمكن الاعتماد علىٰ الحواس، لأنها تخدع صاحبها في كثير من الأَحْيَان. وأمثلة ذٰلِكَ كثيرة منها:

خداع البصر:

١- العصا المُستقِيمة المغمورة في الماء تبدو للنَّاظِر مكسورة.

٢- لا ترىٰ العينُ الزجاجةَ الصَّافِيَةَ، مع أنها موجودة مَنْظُوْرَة.

٣- يرىٰ المريض أشباحاً لا يراها غيره.

خداع الأُذُن:

لا تسمع الأُذُن الأصوات الخافتة، كما لا تسمع الأصوات الشديدة، كصوت الأجرام السماوية، ومثلها تفجر القنابل الذَّرِّيَّة التي لا تسمع الأُذُن منها إلَّا الصيحة الأُوْلَىٰ، أما الانفجارات التي تليها، فلا تسمعها الأُذُن، مع أن آلات التسجيل تسجل

أرقاماً عاليةً جداً، وذٰلِكَ لأن أوتار كورتي في الأُذُن، تسمع ذبذبة معينة محدودة، لا تسمع ما دونها، ولا ما فوقها.

خداع اللمس:

لو وضعتَ في ثلاث أوانٍ ماء حاراً ودافئاً وبارداً، ونقلتَ يدك من الماء الحار إلىٰ الدافئ، تجده بارداً. وإذا نقلتها من الدافئ إلىٰ البارد، تحسه بارداً جداً. وهٰذَا من خداع اللمس.

خداع الذوق:

١- إذا تذوقتَ مادةً شديدة الحلاوة، ثم انتقلتَ بعدها إلىٰ مادةٍ أقل حلاوة من الأُوْلَىٰ، تجدها خالية من الحلاوة.

٢- لا تستطيع حاستا اللمس والذوق مَعْرِفَة الحوامض والمركبات الكيمياوية المحرِقة[1].

هٰذِهِ الأمثلة وغيرها تبين لنا أنَّ الحواس كَثيراً ما تخدع، فلا يَصِحّ الاعتماد عليها في كَشْف الحَقَائِق، لذٰلِكَ كان العقل هو الحَاكِم علىٰ الحواس. وهٰذِهِ أدوات لا غير.

فلا يقال عندئذٍ: بأن الله سُبْحَانَهُ لم يُدرَك بالحواس، فلا ينبغي الإيمان به. هٰذَا لا يقوله إلَّا جاهل.

سبب الإلحاد

الاعْتِقَاد بوجود الله تعالىٰ، هو الفطرة التي فطر الناس عليها، أما الإلحاد فهو طارئ علىٰ الفطرة. وقد حدد القُرْآن الكَرِيْم أسبابه، بما يأتي:

١- الكِبْر: قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ

(١) نداء الروح ص٢٣-٢٧.

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ - الفُرْقَان ٢١-٢٢.

ففي الآية بَيَان: أن الكِبْر وحده هو الذي دفعهم إلىٰ أن يتصوروا أنَّ الحياة هي كل شيء، وليس وراءها إلَّا العَدَم.

٢- الانحراف: قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ - غافر ٣٦-٣٧.

ففي الآية بَيَان: أن طريق فرعون طريق خاطئ، دفعه إليه انحرافه عن الطريق السوي، الذي يعرف به الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ.

٣- الظلم: قال تعالىٰ: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ - النساء ١٥٣.

فكلمة ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ تبين أن الذي دفعهم إلىٰ أن يطلبوا مثل هٰذَا الطلب، هو الظلم، ظلم النفوس للحق، إذ تعرفه وتتنكّر له.

وهٰذَا الظلم (غير العَدْل) هو الذي دفع الكفار إلىٰ اتهام المُؤْمِنين بالله بأنهم: متوهمون وكاذبون وعاطفيون... وهٰذَا ما نراه اليوم من اتهاماتهم بأنهم: غير عِلْمِيِّين، وغير صَادِقين، مشوشون، مخدوعون.

٤- الجهل: قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ - البقرة ١١٨.

ففي الآية بَيَان أن هٰذَا القول كلام جهال غير عالمين، وأنه ليس بجديد، بل هو منطق الكافرين دائماً، لتشابه قلوبهم، وقررت أن الطريق إلىٰ الله هي آياته وآثاره الدالة عليها[1].

---

(١) الله: سَعِيْد حوىٰ ص١١-١٣.

لم يَدْعُ العلم في يوم ما إلىٰ الكفر والإلحاد، لأنه يتبع المَنْهَج السَّلِيْم في الوُصُوْل إلىٰ حَقَائِق الوجود ومظَاهِر الكون.

ولم يقل في يوم: إنَّ هٰذَا النِّظَام الذي يجري عليه العالم قد نشأ صدفة، لأن الصدفة فوضىٰ. والعالِم الذي حلل في المختبر، أو عاش مع المنظار والمرصد، أو تعامل مع الأعداد... لا يعترف إلَّا بالنِّظَام، وربط الأسباب بالمسبَّبَات، والمُقَدَّمات بالنتائج، ويقطع متيقناً بأن قوانين الطبيعة كالجاذبية والكهرباء واللاسلكي... وغيرها من ملايين الصور، ما هي إلَّا آثار تدل علىٰ المؤثِّر وهو الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ... وقد أكد العُلَمَاء هٰذَا الجانب بشكل جليّ.

يقول د. ماريت شانلي كونجدن، أحد كبار عُلَمَاء الطبيعة في العالم: (إنَّ جميع ما في الكون يشهد بوجود الله، ويَدُلّ علىٰ قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العُلَمَاء بتحليل ظواهر هٰذَا الكون ودراستها حتىٰ باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته).

وعندما كان انشتاين جالساً في مكتبة الجَامِعَة، التي يدرس فيها، سأله صحفي: أمن العلم أن تؤمن بالله، وهٰذِهِ العَقِيْدَة فكرة غيبية، غير خاضعة لمختبر العلم؟

فأجابه: انظر إلىٰ هٰذِهِ المكتبة بكتبها الملايين، أليس لكل كتاب مؤلِّف؟ قال: نعم.

قال: فإن دخل طفل إلىٰ المكتبة، فهل يدرك ما في هٰذِهِ المكتبة من العُلُوْم والمَعَارِف؟ قال: لا.

قال: فهل يعرف مؤلفيها؟ قال: لا.

قال: فهل عدم إدراك الطفل للكتب ومؤلفيها، يقوم دليلاً عِلْمِيّاً علىٰ عدم وجودها؟ قال: لا.

قال: فكذٰلِكَ الكون بما فيه من صور ومشَاهد وقوانين. فإنّ عَدَمَ إدراكِ العُقُوْل السطحية الجاهلة التي لا تتأمل خَالِقه، لا يقوم دليلاً عِلْمِيّاً علىٰ نفي وجوده. ثم أخذ

يشرح له دقة النّظام الذي لاحظه في الوجود، مما لا يَدَعُ مجالاً للشك في وجود الله تعالىٰ.

وقد يذهب البعض إلىٰ القول بأن هٰذِهِ نماذج من أقوال، لم تكن إلَّا من أنفار، لا يلتفت إليهم، إزاء الأعداد الكَبِيْرَة من الملحدين.

لٰكِن الحق هو أنَّ السواد الأعظم من العُلَمَاء يذهبون هٰذَا المَذْهَب، وأنهم أكدوا أنَّ العلم هو طريق الإيمان، فقد نشر العالم الدكتور (دينرت) الألماني بحثاً، حلل فيه آراء أكابر العُلَمَاء في القرون الأربعة الأَخِيْرَة، ودرس عقيدتهم فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالماً أَنَّ:

٢٤٢ عالماً أعلنوا في كتبهم ودراساتهم الإيمان بالله.

و٢٨ عالماً لم يصلوا إلىٰ عَقِيْدَة ما.

و٢٠ عالماً كانوا ملاحدة لم يبالوا بالناحية الدِّيْنِيَّة.

فهٰذَا يعني أنَّ ٩٢٪ منهم مُؤْمِنون بالله تعالىٰ.

وإذا راجعتَ كتاب (الله يتجلىٰ في عَصْر العلم) لمجموعة من العُلَمَاء، و(قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر، وجدتَ أسماء كثيرة جداً من العُلَمَاء الأَعْلَام، يؤكدون عَقِيْدَة الإيمان بالله تعالىٰ.

ثم إنَّ كَثِيراً ممن اتُّهِمَ بالإلحاد لم يكن ملحداً حقاً بنظر العلم، وإنما هو ملحد بنظر الكنيسة التي كانت تحكم علىٰ من يخالفها بالإلحاد، فتولستوي مثلاً كان ملحداً في نظر الكنيسة، ولٰكِنه مُؤْمِن عميق الإيمان بالله تعالىٰ. كما هو واضح في كتابه (اعترافات تولستوي).

والعُلَمَاء الذين كفروا بالله تعالىٰ، لم يكن كفرهم نتيجة بحث عِلْمِيّ دقيق، وإنما كان لأمور منها:

١- موقف الكنيسة التعسفي من العُلَمَاء وعدم تشجيعها الفكر الحر، إذ حكمت علىٰ المخالفين منهم بالكفر والزندقة، ونفذت بكل همجية حكم الإحراق والتمثيل والقتل بالعشرات منهم، وأحرقت كتبهم، وهددت بالقتل كل من وجدت بحوزته.

وفي كتاب (قصة النزاع بين الدِّين والفلسفة) للدكتور توفيق الطويل قوائم بأسماء العُلَمَاء الذين أُعدموا بهمجية تفوق الخيال، حتىٰ استقر في ذهن بعض العُلَمَاء أنَّ الدعوة إلىٰ الإلحاد أمر ضروري، لإنقاذ العُلَمَاء من تلك الوحشية.

والحقّ أنَّ إلحادَ هٰؤُلَاءِ لم يكن مبدأ، وإنما كان موقفاً اتخذوه أمام الكنيسة، حتىٰ إذا زال ذٰلِكَ الكابوس تراجعوا إلىٰ القول بالإيمان، بدليل أنَّ عدد المُؤْمِنين بالله من العُلَمَاء الآن يتزايد يوماً بعد آخر.

٢- موقف الكنيسة الظالم من الكادحين والأرقاء والمظلومين، وكونها بجانب الملوك المستبدين من الإقطاعيين، وكون البابوات هم أصحاب السلطة الحقيقية وأصحاب المال وأصحاب صكوك الغُفْران... .

هٰذَا الموقف دفع الكثير من المفكرين إلىٰ الدعوة إلىٰ نبذ الكنيسة، وإلىٰ الإلحاد لإنقاذ المغلوب علىٰ أمرهم، مما يعانون به من شقاء وعَنَتٍ.

٣- تغلغل اليَهُوْدِيَّة العالمية عن طريق الماسونية، التي كانت تتبنىٰ الإلحاد لهدم مقاومة المجتمع المَسِيْحِيّ والسَّيْطَرَة عليه، وهٰذَا الاتجاه الماسوني الملحد ظهر واضحاً في جَمَاعَة (الانسكلوبيديا) وأتباعهم وتلامذتهم، وقد قامت الثورة الفرنسية علىٰ أكتاف هٰؤُلَاءِ.

٤- الإلحاد في كل زمان ومكان طريق للإباحية والتملُّص من المثل العالية، لذٰلِكَ كان ملاذ أصحاب الشهوات والمنحرفين عن الخلق الرفيع.

ومُجْمَل القول:

فالإلحاد لم يكن موقفاً أَصِيْلاً للعلم وإنما أحدثته ظروف خاصة، أما المَنْهَج العِلْمِيّ فهو منطلق الإيمان بالله عَزَّ وجَلَّ ومعرفته وتقديره حق قدره[1].

---

(١) العلم ليس كافراً ص٨ وما بعدها. وانظر: إحصائية ديبرت في كتاب روح الدِّين الإسلامِيّ ص٦٠، والطب محراب للإيمان ص٢٥٦.

نشأة علم الكلام واسبابها :

مضى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم من بعدهم مضى عصر الأمويين ، ومع ما ظهر في ذلك من الآراء والمذاهب فيما يتعلق بالعقيدة ، فلم تتخذ مسائل العقيدة سبيلاً لأن تكون علماً ، فتدعى علم العقيدة ، أو علم أصول الدين ، أو علم التوحيد ، أو علم الكلام ، أو غير ذلك من الأسماء ، على الرغم من وجود مسائل

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني : (١٧٤/٢ و ٢١١/٢ فما بعدها) .
(٢) مقالات الاسلاميين : (٦٥/١) .

هامة في العقيدة جرى فيها الاختلاف ، وآلت بالمسلمين الى أن جعلتهم فرقاً متباعدة ، كما ألمحنا الى ذلك .

وعندما آل الأمر الى بني العباس ، كثر البحث في العقائد في عصرهم ، وتشعبت طرائق الكلام عنها ، واتخذ ذلك ألواناً جديدة لم تكن أيام النبي ﷺ ، ولا الأولين من صحابته ، وأخذت هذه البحوث تتركز ليتكون منها علم جديد يساير العلوم التي نشأت في هذا العصر ، ألا وهو « علم الكلام » .

وقد تعاون على نشوئه وارتقائه أسباب كثيرة ذكرها الأستاذ أحمد أمين في كتابه « ضحى الاسلام » وبين أن هناك أسباباً داخلية وأسباباً خارجية ، وعنى بالأسباب الداخلية الأسباب التي صدرت من طبيعة الاسلام نفسه والمسلمين أنفسهم ، وعنى بالأسباب الخارجية الأسباب التي أتت من الثقافات الأجنبية ، والديانات المختلفة غير الاسلام .

الاسباب الداخلية :

أما الأسباب الداخلية فأهمها ما يلي :

١ ـ عرض القرآن لأهم الأديان والفرق ، ورده عليهم ، ونقضه لما يقولون ، فالقرآن الكريم بجانب دعوته الى التوحيد والايمان بالنبوات وما يتصل بذلك ، عرض لأهم الفرق والأديان التي كانت منتشرة في عهد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ورد عليهم وناقش أقوالهم ونقضها ، فحكى عن قوم أنكروا الأديان والإلهيات والنبوات : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعمتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين[1] » . « وقالوا ما هي إلا حياتنا

---

(١) المؤمنون : (٣٣ ـ ٣٧) . (٢) الجاثية : (٢٤) .

الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر[1] » فرد عليهم قولهم بمختلف الأدلة .

وعرض للشرك بجميع أنواعه ، فمن المشركين من اله الكواكب واتخذها شريكة لله ، فرد عليهم بمثل ما حكى عن إبراهيم عليه السلام : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين[2] » .

ومنهم من أله عيسى عليه السلام ، فناقشهم في ذلك وردّ عليهم في مواطن كثيرة ، منها ما جاء في آخر سورة المائدة « وإذ قال الله يا عيسى أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ...[3] » .

وحمل على الذين قالوا بعبادة الأوثان ، وأشركوها مع الله ، فقال تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز[4] » .

وحكى عن قوم أنكروا النبوات جميعاً إذ قالوا : « أبعث الله بشراً رسولا » فناقشهم وردّ عليهم في غير ما موضع .

وأنكر قوم نبوة محمد ﷺ « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض

---

(١) الانعام : (٧٤ ــ ٧٩) .
(٢) انظر من سورة المائدة الآية : (١٦ فما بعدها) .
(٣) الحج : (٧٣ ــ ٧٤) .
(٤) الإسراء : (٩٤) .

ينبوعاً • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا[1] » •

فناقشهم القرآن في هذا في أكثر من موضع •

وأنكر قوم البعث بعد الموت فرد عليهم بقوله : « كما بدأنا أول خلق نعيده » وبقوله : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور [2] » وقال تعالى : « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم[3] » •

وعرض لمسائل التكليف والجبر والاختيار وأبان الحجة فيها ، فحكى عن طائفة من المنافقين يوم أحد أنهم قالوا : « هل لنا من الأمر من شيء » وقالوا : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » فرد هذه القولة وناقشها في أكثر من موضع ، وحكى مثل هذا عن المشركين فقال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا

---

(١) الحج : (٩٠ – ٩٣) •

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون[1] » وقال سبحانه : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين[2] » .

ولقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجهر بدعوته ويجادل مخالفيه ، فقال تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين[3] » .

فالقرآن الكريم اذ عرض كل ذلك كان طبيعياً أن ينهج علماء الملة هذا المنهج ، فيردوا على المخالفين ، ويتوسعوا في الدفاع توسع المخالفين في الهجوم ، ويجددوا الحجج في الرد" كلما جدّد المخالفون الحجج في الطعن ، فكان هذا من أسباب نشوء علم الكلام .

٢" ــ فلسفة الدين : وذلك أن المسلمين لما فرغوا من الفتح ، واستقر بهم الأمر ، واتسع لهم الرزق ، ووجدوا فسحة من الزمان ، أخذ عقلهم يتفلسف في الدين ، فيثير خلافات دينية ويجتهد في بحثها ، والتوفيق بين مظاهرها ، ففي أول الأمر تكون العقيدة قوية لا تأبه لخلاف ، ولا تلتفت الى بحث ، ينفذ النظر فيها الى أسس الدين فتعتنقها الأمة ، وتؤمن بها إيماناً تاماً ، من غير ميل الى بحث وفلسفة ، ثم يأتي من بعد ذلك طور البحث والنظر ، وصبغ مسائل الدين صبغة علمية فلسفية ، واذ ذاك يلتجيء علماء الدين الى الفلسفة يستعينون بها في تدعيم حججهم وتقوية براهينهم .

ومن هنا نرى أنه ما كادينقضي العصر الاسلامي الاول ، في إيمان لا يعتوره

---

(١) الانعام : (١٤٨) .
(٢) النحل : (٣٥) .
(٣) النحل : (١٢٥) .

كثير من الجدل ، وبهدأ الناس بعد ذلك ، حتى أخذوا ينظرون ويبحثون ، ويتوسعون في النظر والبحث ، ويجمعون بين الأشباه والنظائر ، ويستخرجون وجوه الفروق والموافقات ، فكان ذلك حتماً مستتبعاً اختلاف وجهة النظر ، فاختلاف الآراء والمذاهب .

٣ـ اختلافهم في أمور دينية تتعلق بالسياسة :

تنصيب خليفة للمسلمين يرعى شؤونهم ، ويقوم على أمورهم الدنيوية والدينية ، ويدرأ عنهم كيد الأعداء ، ويحافظ على وحدتهم واجب ديني يتعلق بجانب من جوانب المجتمع الاسلامي ، ألا وهو الجانب السياسي . فلقد قال الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد :

وواجب نصب إمام عدل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

ولقد علق شيخ الاسلام الباجوري على هذا الكلام بقوله : « ومن الوجوه الدالة على وجوبه بالشرع أن الشارع أمر باقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش ، وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون اليه في أمورهم ، وقد أجمعت الصحابة عليه بعد مفارقته الدنيا ﷺ ، واشتغلوا به عن دفنه ﷺ ، لأنه توفي يوم الاثنين عند الزوال ، فمكث ذلك اليوم وليلة الثلاثاء ، ودفن ﷺ في آخر ليلة الاربعاء ، وقال أبو بكر رضي الله عنه : « ولا بدّ لهذا الأمر ممن يقوم به ، فانظروا وهاتوا آراءكم رحمكم الله تعالى ، فقالوا من كل جانب من المسجد : صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة لنا الى إمام[1] » .

ولقد اختلف المسلمون بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في أمر الخلافة، فلقد توفي رسول الله ﷺ ولم يعين من يخلفه ، فتفرق الناس في ذلك أحزاباً ، فلأهل السنة رأي ، وللشيعة رأي وللخوارج رأي ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، وقد

---

(١) تحفة المريد : (١١٧) .

أصبحت هذه الفرق فرقاً دينية ، تؤيد ما ذهبت اليه بأدلة دينية ، ولقد قال الأستاذ أحمد أمين في ذلك : « ورأينا الخلاف خلافاً دينياً ، ورأينا كل حزب له أدلته الدينية ، ورأينا خلافاً في هذه الحروب حول الكفر والإيمان ، ورأينا أن تسجيل هذه الحوادث والحروب والنزاع ، لم يكن محلها فقط كتب التاريخ ، وهي التي تسجل الحوادث السياسية ، بل عني بتسجيلها أيضا كتب الفرق الدينية والملل والنحل .

وأحياناً يحكي القول من أقوال الفرق المختلفة على أنه مذهب ديني بحت ، ومسألة عقيدة صرفة ، مع أنا لو دققنا النظر في أصلها لوجدناه سياسياً ، كمسألة مرتكب الكبيرة أكافر أم مؤمن ، فالظاهر أن بحثها لم يكن بحثاً لاهوتياً بحتاً ، وانما منشؤها حكم الاحزاب السياسية بعضها على بعض ، فالخوارج أثاروا المسألة من ناحية من اتبع علياً أكافر أم مؤمن ، ومن اتبع معاوية أكافر أم مؤمن ؟ كما تساءل نحن اليوم : ما حكم من اتبع مذهب كذا السياسي أخائن لوطنه أم غير خائن ، ولكن طبيعة الزمن صبغت المسألة هذه الصبغة الدينية ، ثم تنوسي أصلها على مر الزمان ، ووضعت على أنها مسألة إيمانية مجردة من السياسة .

والسبب في هذا أن الدين الاسلامي كان في عنفوانه ، وقد امتلأت نفوس الناس به ، وكان سبب سعادتهم الروحية والدينية والدنيوية ، وهم قريبو عهد بالنبوة ، فنظرهم الى المسائل ــ وخاصة الهامة منها ــ لا بد أن يصطبغ اصطباغاً قوياً بالدين بحكم البيئة والجو ، أضف الى ذلك أنه كان في كل حرب مكرة مهرة رأوا أن الناس لا يستهويهم القول بالصالح العام كما يستهويهم القول بأنهم في دفاعهم انما يدافعون عن الدين ، ويجردون السيف باسم الدين ، فغرقت الأحزاب كلها في هذا البحر ، واستعملت هذا السيف ، وأثارت العواطف من هذا الباب ، واستغلت عقول العلماء ليمدوها بما لديهم من علم في هذه السبل ، وانضم اليهم من لا يخافون الله ، فاذا لم يجدوا في الدين شيئاً وضعوا له الحديث والأخبار الدينية ، وبذلك كله كان الخلاف السياسي سبباً كبيراً من أسباب الخلاف الديني ، وسبباً في العقائد والفرق ، واذا بنا نرى حزب علي فرقة دينية هي حزب

الشيعة ، يرون أن الدين نص على علي وذريته ، ونرى حزب الأمويين حزباً دينياً ، يرون أن إمامة معاوية وأولاده ثبتت باتفاق أهل الحل والعقد في الأمة ، ونرى حزب الذين لا يرضون عن هؤلاء جميعاً حزباً دينياً يسمى الخوارج ، له عقائده وتعاليمه ، ونرى حزب المحايدين حزباً دينياً يسمى المرجئة ، له خلافاته وآراؤه ، وساقهم هذا الخلاف السياسي الذي اصطبغ بالدين الى الخلاف في تعريف الإيمان والكفر ، والكبائر والصغائر وحكم مرتكب الكبيرة ونحو ذلك ، وانساقوا بعد الى الخلاف في الفروع حتى تكونت من كل منهم فرقة لها خلاف في الأصول والفروع على مر الزمان[1] » .

الأسباب الخارجية لنشوء علم الكلام :

أما الأسباب الخارجية فأهمها :

١ ـ كثرة من دخل في الاسلام من أرباب الديانات المختلفة ؛ وذلك أن كثيراً ممن دخلوا في الاسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة ، يهودية ، ونصرانية ، ومانوية ، وزرادشتية وبراهمة وصابئة ودهريين وغير ذلك ، وكانوا قد نشأوا على تعاليم هذه الديانات وشبوا عليها ، وكان ممن أسلم علماء في هذه الديانات ، فلما اطمأنوا وهدأت نفوسهم واستقرت في الدين الجديد وهو الاسلام ، أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم ، ويثيرون مسائل من مسائله ويلبسونها لباس الاسلام ، وهذا ما يعلل ما نرى في كتب الفرق من أقوال بعيدة كل البعد عن الاسلام ، فنرى أحمد بن حائط يقول في التناسخ شبه ما يقول البراهمة ، ويقول في المسيح عليه السلام قولاً يشبه قول النصارى ، الى كثير من أمثال ذلك .

٢ ـ الحرص على الدعوة الى الاسلام ، والرد على المخالفين : وذلك أن

---

(١) انظر ضحى الاسلام : (٦ ـ ٧) .

الفرق الاسلامية الأولى ، وخاصة المعتزلة ؛ جعلت من أهم أغراضها الدعوة الى الاسلام والردّ على المخالفين ، وما كان يتسنى لهم الردّ إلا بعد الاطلاع على أقوالهم وأدلتهم ، فدفعهم ذلك الى الإحاطة بالفرق الاجنبية وأقوالها وحججها ، فأصبحت البلاد الاسلامية ساحة تعرض فيها كل الآراء وكل الديانات ، ويتجادل فيها ، ولا شك أن الجدل يستدعي النظر والتفكير ، ويثير مسائل تستدعي التأمل ، وتحمل كل فريق على الأخذ بما صح عنده من قول يخالفه .

وكان بعض الأديان ، وخاصة اليهودية والنصرانية ، قد تسلح بالفلسفة اليونانية ، وقد أدى هذا الى أن يلجأ المعتزلة الى مثل السلاح الذي لجأ اليه خصومهم ، ومن هذا الاحتكاك بين المعتزلة وأمثالهم ، وبين الملل الاخرى ، نشأت بين المسلمين أقوال مختلفة ، فكان ذلك سبباً من أسباب تضخم علم الكلام .

٣ـ حاجة المتكلمين الى دراسة الفلسفة : وهذا سبب ثالث نشأ عن السبب الثاني ، وهو أن حاجة المتكلمين الى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم ، يجادلونهم بمثل حججهم ؛ اضطرتهم الى أن يقرأوا الفلسفة اليونانية ، وينتفعوا بالمنطق اليوناني ، فنرى النظام ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ يقرأ أرسطو ويرد عليه ، ونرى أبا الهذيل العلاف ـ وهو من شيوخ المعتزلة أيضاً ـ كذلك ، ونرى كثيراً من المعتزلة يتكلمون في الطفرة والتوالد والجوهر والعرض والجوهر الفرد ، ونحو ذلك من المسائل التي تعدّ من صميم الفلسفة اليونانية ، وتدخل في بحوث المتكلمين .

فهذه الأسباب كلها من داخلية وخارجية ، هي التي كونت علم الكلام وجعلته فناً قائماً بنفسه[1] .

هذا ولا بدّ في نهاية هذا البحث من بيان لمسالك علماء الاسلام في صد هذه

---

(١) انظر المصدر السابق : (٣/٧ ـ ٩) .

التيارات الجانحة ، والنزعات المختلفــة ، فتقول : ان مسالــك المسلمين تنحصر في ثلاثة مسالك :

المسلك الاول : استثارة نوازع الفطرة الأصيلة في الانسان ، وازالة الغواشي والحواجز التي تصده عن الشعور بها والخضوع لها •

المسلك الثاني : تحكيم موازين العقل والمنطق ، مما ائتلفت واجتمعت عليــه عقول الناس أجمع ، وهذه الموازين العقلية والمنطقية يدعو القرآن الى استخدامها والى مواجهة الجاحدين بها ، بل ربما لقــن القرآن الكريم بأسلوبه المعجز طريقــة الاحتجاج بهــا •

المسلك الثالث : وهو مسلك الفلاسفة والمتكلمين الاسلاميين ، فقد اعتمدوا على منهج الفلاسفة وطريقتهم ، وقد أشرنا الى شيء من ذلك فيما سبق •